الفصل الثاني

العهد اليوناني

بعد أن بدأت شعوب وجيوش بحر إيجة بالتوحد بقيادة أثينا، التي كانت قد استطاعت أن تتوسع في محيطها الأرخبيلي، ومن ثم في محيطها القاري الأوربي، ولم تعانِ في انتشارها هذا إلا من المقاومة الفينيقية في القرن الثامن قبل الميلاد، والتي استطاعت في النهاية من كسر شوكتها، وتابعت تمددها الذي وصل إلى ذروته في القرن الخامس قبل الميلاد، وبدأ الصدام الفارسي اليوناني في عهد داريوس الأول عندما تقدمت القوات الفارسية سنة ٤٩٢ قبل الميلاد نحو اليونان، وقد حققت تلك الحملة بعض النجاح، وظهر التفوق المحدود الفارسي على القوة اليونانية، واستطاع الفرس أن يسيطروا على شمال اليونان، ولأن الفرس حاولوا أن يحصلوا على النصر، فقد بعث داريوس بحملة عسكرية ثانية، ولكن جيوش أثينا استطاعت أن تصمد أمام الهجوم الفارسي المباشر، ولكن الفرس في سنة ٤٩٠ قبل الميلاد استطاعوا تدمير اليونان الوسطى، ونهبوا معابد أثينا، وأحرقوها، ولكن، وفي النهاية، استطاعت الجيوش اليونانية، التي توحدت تحت قيادة واحدة، أن تضع حدا للهيمنة الفارسية عليها، وعلى المنطقة بعد معركة سلاميس سنة ٤٧٩ قبل الميلاد، وأخذت الجيوش اليونانية بقيادة أثينا تتقدم ببطء عبر آسيا الصغرى على حساب الإمبراطورية الفارسية، وفي سنة ٤٦٨ قبل الميلاد استطاعت القوات اليونانية بقيادة أثينا أن تكنّس الوجود الفارسي من مجالها الحيوي، بل إنها استطاعت أن تقدم دعما عسكريا مؤلفاً من أسطول بحري ضخم سنة ٤٥٤ قبل الميلاد إلى مصر التي أعلنت تمردها على السيطرة الفارسية، وقد تطورت السيادة السياسية والعسكرية اليونانية لا سيما في عهد فيليب الثاني (٣٥٩ - ٣٣٦ق.م) مؤسس الدولة المقدونية، وهو الذي جعل من مقدونيا الدولة الأعظم في زمانها، وهو الذي كان قد قرر وخطط للقيام بحملة عسكرية واسعة النطاق ضد الفرس، ولكن اغتياله سنة ٣٣٦ قبل الميلاد حال دون ذلك، وبعد تولي الحكم تلميذ الفلاسفة النجيب الاسكندر المقدوني (٣٣٦ - ٣٢٣ق.م)، والذي، استطاع على الرغم من صغر سنه، أن يسوي حساباته الداخلية، وأن يرسخ حكمه، ومن حينها تسارعت حركة التوسع الإغريقي بشكل لم يكن له مثيل، ففي سنة ٣٣٤ قبل الميلاد تقدمت قوات الاسكندر المقدوني نحو آسيا الصغرى، وفي السنة التي تلتها تابع طريقه نحو جنوب البحر الأبيض المتوسط، واستطاع التغلب على القوات الفارسية، وتابع طريقه نحو مدن الشاطئ الفينيقية الحصينة التي سقطت تباعا بعد حصار استمر في مدينة جبيل قرابة ستة أشهر، ومنها تابع طريقه نحو مصر التي استقبلته كمحرر، وهذا ما ساهم أيضا في أغرقة مصر، وسواها من الأقاليم التي فتحها، وقد استطاع الاسكندر المقدوني من الاستيلاء على منطقة الشرق الأدنى، واحتل فلسطين سنة

٣٣٢ قبل الميلاد، وفي سنة ٣٣١ قبل الميلاد وصل نحو بلاد الرافدين، واستطاع أن يدخل مدينة بابل التي استقبلته أيضا كمحرر، ثم سقطت عواصم ومدن فارس تباعا، ومن ثم تابع الاسكندر المقدوني طريقه نحو الهند، وقد بدأ الإسكندر يُدخل إلى البلاد المفتوحة الحضارة اليونانية معتبرا نفسه رسول الحضارة الإنسانية إلى العالم، وبذلك كان افتتاحه للبلدان ذا مفهوم فلسفي فكري، أكثر من أن يكون اجتياحا، أو احتلالا عسكريا، وقام الاسكندر المقدوني بنشر الفكر الهيليني الفلسفي، وكان هذا الفاتح الجديد يسعى إلى جعل البلاد التي يفتحها تنعم بوحدة ثقافية تسودها القيم والأخلاق الهلنستية، ولذا فقد شجّع على دعم كل ما من شأنه أن يمزج الشعوب في وحدة حضارية، ثقافية، أثنية واحدة، ولذا فقد شجع على الزواج المختلط بين الفرس واليونان لصهر الشعبين.

ولكن هذا الطريق الطويل الذي قطعه الاسكندر في فتح البلدان، جعل بعض عناصر جيشه الذي أنهكه التعب، يضيق ذرعا بالطموحات الكبيرة التي كان يحملها الاسكندر المقدوني، وبدأ بعض عناصر الجيش يحيكون المؤامرات ضده، وقد تصدى لها الاسكندر بحزم، ولكنه في الهند قرر التوقف عن متابعة الحملة والعودة نحو الشرق الأدنى، وبينما عادت بعض قواته بحرا، عاد هو عبر الطريق البري، ووصل إلى بابل سنة ٣٢٥ قبل الميلاد، وفي سنة ٣٢٤ قبل الميلاد نشب تمرد عسكري استطاع قمعه بقوة، ومن حينها بدأ سياسته بتغليب العنصر الفارسي في جيشه، على العنصر الإغريقي.

ولكن، وبموت الإسكندر المفاجئ والمبكر سنة ٣٢٣ق.م بعد إصابته بداء الملاريا (البرداء) انهار المشروع الفلسفي الهيليني، بعد أن تولى الحكم قادة عسكريون لا فلاسفة، كما انقسمت إمبراطوريته بين قادته العسكريين، حيث أصبحت اليونان تحت حكم أنتيباتر، وأصبحت مكدونيا وفيريجيا الكبرى تحت سلطة أنتيجوس، أما منطقة سوريا والهلال الخصيب فأصبحت تحت حكم سلوقس والي بابل، ومصر تحت حكم بطليموس، وفي ستة ٣٠١ قبل الميلاد، وبعد معركة حاسمة بينية تشكلت ثلاث دولة هلينية منفصلة هي: سوريا السلوقية، ومصر البطلمية، ومقدونيا الأنتيجونية.

أما بالنسبة لفلسطين فأصبحت تابعة للبطالمة في مصر حينا، وحينا آخر للسلوقيين في سورية، وقد دفعت منطقة فلسطين الحدودية ثمن الصراع بين البطالسة والسلوقيين، وعانت، بسبب ذلك، الكثير من الفقر والجوع وسوء الأحوال العامة، وكانت تنتقل فلسطين من هيمنة إلى أخرى، إلى أن انتهت أخيرا سنة ٣٠١ق.م إلى البطالسة، وفي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد قام بطليموس الأول بحملة على أورشليم ونقل عدداً من اليهود إلى أفريقيا، وبقيت فلسطين تحت حكم البطالسة حتى سنة ١٩٨ قبل الميلاد.

اتسمت هذه المرحلة في ولاية يهودا بالهدوء على مستوى الأحداث العامة، مترافقة، على مستوى المجتمع، ببدء تمايز طبقي، مع بدء هلينة للطبقات العليا من المجتمع، أما دينيا فقد اتسم البطالمة بتسامحهم الديني الأمر الذي مكّن الكهنة من أن يجعلوا اليهود يلتفون حول العقيدة اليهودية، وقد ترافق ذلك باندخال الفلسفات الهيلينية ضمن العقيدة الدينية السياسية اليهودية، وبعد أن كانت بابل العاصمة اللاهوتية لليهود، والتي كانت تمثل المذهب الأرثوذكسي، أصبحت الإسكندرية عاصمة اللاهوت الليبرالي، حيث هناك بُدئ بترجمة التوراة (الترجمة السبعينية) إلى اليونانية حسب رغبة بطليموس فيلادلفوس (بطليموس الثاني) (٢٨٥ - ٢٤٧ق.م)، والذي كان مهتما بالمعارف والعلوم والآداب، أما يهود فلسطين

فكانوا يشكلون الجناح الثوري ضد الكهنة الذين كانوا عملاء للإغريق، وقد تشكلت عدة مذاهب دينية في مقاطعة يهود في مراحل لاحقة.

كانت مقاطعة يهود في عهد البطالسة شبه مستقلة، دون أن تحصل على استقلالية سياسية شأنها شأن باقي الأقاليم، وكان اليهود يتمتعون بحريتهم الدينية، وكانوا يخضعون لحكم الكاهن الأكبر الذي يترأس مجلس الأعيان المسؤول أمام السلطة السياسية اليونانية، والتي كانت تتقاضى من الكاهن الأكبر الجزية التي كان يجمعها بدوره من شعبه، وهذا ما سمح لليهود بأن يحافظوا على كيانهم الديني التراثي.

وقد خضعت فلسطين للسلوقيين في سنة ١٩٨ قبل الميلاد بعد انتصارهم في معركة بانياس، وقد ساعدهم في ذلك الحزب اليهودي الموالي للسلوقين، ولذا فقد قدّر السلوقيون لليهود هذا الموقف، وقدموا لهم دعما اقتصاديا، وقد استفاد من هذا الدعم ذوو الشأن، الأمر الذي ساهم، إلى جانب تبني القيادات اليهودية الفكر والنمط الاجتماعي الهيليني، في تشكيل وتعميق التطبق الاجتماعي الاقتصادي، فبينما كان القادة والوجهاء يزدادون غنى، كان العامة يزدادون فقرا ككل المقاطعات اليونانية، وبدت معاناة الشعب بالتصاعد، وفي تلك الفترة بدأت تشيع أفكار ونبوءات الخلاص، لا سيما تلك التي تم دسها، من قبل بعض رجال الدين الذين كانوا إلى جانب الفقراء، في أسفار الأنبياء السابقين مثل سفر النبي إشعيا، كما تغلغلت الفلسفة اليونانية الغنوصية في الفكر التوراتي خاصة بعد أن قام بعض اليونانيين بالاستيطان في فلسطين، الأمر الذي أدى إلى تغيّر بالتركيبة السكانية، وبالتالي الثقافية الفكرية، بخاصة وأن السلوقيين كانوا يُعَدّون أنفسهم ورثة الفكر الفلسفي للإسكندر المقدوني.

وقد نشب صراع يهودي بيني في بداية عهد السلوقيين، تمثل بين مؤيدي السلوقيين، ومؤيدي البطالسة، فكان الفريق المؤيد للسلوقيين بقيادة ياسون الممثل للطبقة البرجوازية اليهودية، أما الفريق المتمسك بيهوديته بقيادة الكاهن أونيا فقد وقف إلى جانب البطالسة، وقد عرض ياسون على السلوقي انطوخيوس الرابع (إبيفانس) (١٧٥ - ١٦٤ق.م) أن يهلين اليهودية إذا ما عينه كاهنا أعلى، وأن يعطيه الكثير من قناطير الفضة، ولما حصل ذلك، وبدأ ياسون بهلينة اليهودية، ومع زيادة الانقسام الطبقي، ثار الشعب وأعلنوا العصيان على ياسون، وبالتالي على أنطوخيوس الرابع، الأمر الذي قاد إلى ثورة شعبية، في الوقت الذي كان أنطيوخوس الرابع (أبفانس) يقود حملة على مصر سنة ١٦٧ قبل الميلاد، وأثناء عودته احتل أورشليم، وسحق حركة التمرد، واستباح ولاية يهود، وأباح أورشليم لجنوده لمدة ثلاثة أيام، ونهب الهيكل الذي حوّله إلى معبد للإله الكنعاني بعل، والذي يشكل وجها آخر للإله زيوس، كما سمح بتقديم الخنازير من بين القرابين على مذبح الهيكل، وأعلن أورشليم مدينة يونانية (بولس)، ومنع ممارسة الشعائر الدينية اليهودية فيها، وألغى تقديس يوم السبت، والاحتفال بالأعياد الدينية اليهودية، واعتبر الختان جريمة يعاقب عليها القانون، كما أمر بإحراق كتاب الشريعة، وعين منيلاوس المتهلين كاهنا أعلى من قبل السلوقيين، كما قام ببناء مستوطنة هيلينية لضمان السيطرة على مقاطعة يهود، وفرض المزيد من الضرائب، وبدأت بعض الطبقات الانخراط في الهلينة، وتعرضت اليهودية إلى أزمة وجودية حقيقية لم تشهد لها مثيلا من قبل، وفي هذا الوقت بدأت تظهر كتابات نبوئية رئيوية خلاصية، ومنها سفر دانيال، كما قام بعض الكتبة اليهود بدسّ بعض النبوءات الخلاصية في أسفار الأنبياء مثل إشعيا، وإرميا، وكان الأنبياء الجدد (المجهولون) يكتبون نبوءاتهم

ويدسونها في أسفار الأنبياء المشهورين، ويدّعون أنها تنبؤات قديمة كتبت في الماضي، وبما أن هذه النبوءات كانت تتحدث عن المستقبل الذي أصبح جزء منه ماضيا، وهي من المؤكد قد حدثت، فقد أخذت تلك النبوءات مصداقية عالية من قبل الشعب، وبالوقت نفسه، لم تؤد تلك النبوءات إلى ملاحقة كتابها من قبل السلطة.

وأمام هذه الأحداث الكبرى، والفوضى الدينية، قام الكاهن متتياهو الحشموني مع أبنائه الخمسة بحركة تمرد تحولت إلى ثورة عصابات، وكانت الشرارة التي أدت إلى ثورة الميكابيين هي وصول رسول سلوقي إلى قرية مودين اليهودية يأمرهم بعبادة الأوثان الإغريقية، وقد قام متتياهو بقتله، وأعلن التمرد على السلوقيين، وقد اتخذ متتياهو من الريف منطلقا له ضد اليهود المتهلينين، وحركة الهلينة بالدرجة الأولى، وضد الجيش السلوقي بالدرجة الثانية، وقد استفاد متتياهو من المغاور الحصينة، ومن الطرق الجبلية الملتوية في شن حملات كر وفر، وقد ألحق خسائر كبيرة بالجيش النظامي، وانتصر في معركتين (معركة بيت عور، معركة بيت حور)، الأمر الذي جعل الملك السلوقي يبعث بجيش كبير قام بالاستيلاء على أورشليم، ومنع العبادة في هيكلها، وبدأ يشن الحملات ضد الثوار الحشمونيين، وقد استغل الجيش السلوقي يوم السبت، وشن حملة واسعة على المغاور والكهوف وقام بإحراقها، وقد مات عدد كبير منهم، وكان منهم قائد الثورة متتياهو الذي مات أثناء محاولته الهروب.

وتولى القيادة من بعد موت متتياهو ابنه يهوذا الذي لقب نفسه مكابي (المطرقة)، والذي شرّع لجماعته الدفاع عن أنفسهم يوم السبت، كما صرّح أن من يموت في المعركة يكون شهيدا ويصبح خالدا، كما قام بتطوير نظامه العسكري، ووسّع من مكان هيمنته الريفية، وقد استطاع المكابي من خلال تكتيكات عسكرية تقوم على مبدأ الكر والفر من إلحاق هزائم متعددة بالحامية السلوقية التي كانت تحت إمرة القائد ليسياس، وقد حاول أن يسترضي المكابي، وأن يضعف التأييد الشعبي اليهودي للحركة الحشمونية من خلال منح الولاية الحرية الدينية، ولكن مكابي كان ينظر إلى أبعد من هذا، واستطاع أخيرا أن يحقق أهم أهدافه بالدخول إلى مدينة أورشليم في شهر كانون الأول من سنة ١٦٤ قبل الميلاد، وأزاح الطبقة اليهودية الهيلينية التي كانت تسيطر على اليهود، ولكن التوترات الشعبية بقيت مستمرة بين أنصار السلوقيين الوثنيين، واليهود المتهلينين.

ولم تستطع السلطة السياسية السلوقية أن تكبح لجام المكابي، فبعد أن أصبح ليسياس وليا للعهد، جنّد جيشا كبيرا على يهوذا، وبعد عدة صدامات كانت للمكابيين نصرة جزئية فيها، فاضطرت السلطة السلوقية إلى التفاوض، والاتفاق مع يهوذا المكابي، بعد أن تم إلغاء المراسيم التي استصدرها أنطيوخوس (أبيفانس)، وبذلك عادت أورشليم مدينة دينية يهودية، وقد قامت روما بدور العراب بين الطرفين، وانتهت المفاوضات إلى توقيع الطرفين سنة ١٦١ قبل الميلاد على اتفاق تم من خلاله الاعتراف الرسمي بالوجود الحشموني، من قبل أثينا، وروما.

وقد أدرك يهوذا أن طموحاته لن تتحقق إلا إذا ضمن له دعم دولي، فبعث بوفد إلى روما، حيث تم عقد اتفاق يلزم الطرفين بتقديم العون العسكري المتبادل (اتفاقية دفاع مشترك)، وهذا ما جعل أو شجع الملك ديمتريوس الأول على التعامل بجدية أكبر مع السلطة الحشمونية، وتزامن هذا مع طلب المعارضة اليهودية للميكابيين من السلطة المركزية تقديم

المساعدة ضد الحمشونيين، فبعث ديمتريوس بحملة صغيرة في البداية انتصر عليها ميكابي الذي كان يتطلع إلى استقلال سياسي مطلق، لكن الحملة الثانية الكبيرة هزمته وقامت بقتله مع أخوه يوحنا سنة ١٦٠ قبل الميلاد، ولكن أخويه يوناثان وشمعون (سمعان) فرا إلى شرقي الأردن.

وبسبب تعرض العرش السلوقي إلى المنافسة بين ديمتريوس والاسكندر، بعث الأخير برسالة إلى يوناثان يطلب منه الوقوف إلى جانبه في حربه على العرش، وقد عرف يوناثان استغلال هذه الخلافات السياسية، ولما نجح الاسكندر في توليه الحكم قام بتنصيب يونثان كاهنا أكبر، وحاكما أكبر على ولاية يهودا بحيث كان هو الوحيد المخوّل له دخول قدس الأقداس، وترك الاسكندر ليونثان هامشا من الاستقلال في تصريف أمور ولاية يهودا، ولكن، ولأن يونثان غيّر ولاءه، وقام بتجديد معاهدة الدعم المتبادل بين يهودا وروما، كما أنه تحالف مع إسبرطة، قامت السلطة السلوقية باعتقاله، أو بصورة أدق بأسره، ثم خلفه أخوه شمعون (سمعان) سنة ١٤٣ قبل الميلاد الذي قام بتوسيع حدود سلطته، وضم إليها جيزر ويافا التي جعلها ميناء له، الأمر الذي جعل السلطة السلوقية تنتقم منه بقتل أخيه يونثان الأسير لديها، ولكن شمعون المؤسس الحقيقي لدولة أورشليم المستقلة، لم يثن من عزيمته في الذهاب بعيدا في تحقيق طموحاته، فبعد أن حاصر قلعة الأكرا السلوقية، وبعد أن سقطت قام بتدميرها نهائيا، وفي سنة ١٤٢ قبل الميلاد أعلن الاستقلال عن سلوقيا التي خضعت للأمر الواقع، في الوقت الذي كانت تمر فيه في أضعف مرحلة من مراحل تاريخها، لا سيما بعد أن بدأت القوات الرومانية تسحب البساط من تحت أقدام السلوقيين، والتي استطاعت أن تسيطر على بلاد الإغريق، ثم توجهت نحو آسيا الصغرى مهددة السلوقيين الذين لم يعودوا قادرين على ضبط سيطرتهم على الأقاليم وبخاصة على مقاطعة يهودا.

وبعد استقلال ولاية يهودا قام شمعون بتهويد الحياة العامة في الولاية، ومحا الآثار الهيلينية بمساعدة طائفة الصدوقيين، ولكن الصراع داخل العائلة الحشمونية اشتعل في تلك الفترة، وكان أهم من نافس شمعون على السلطة هو تلمي (بطليموس) حاكم أريحا، وقد حاول شمعون أن يسترضيه فزوجه بابنته، ولكن تلمي عاد إلى معارضته، وقام باغتيال شمعون واثنين من أبنائه سنة ١٣٥ قبل الميلاد، ولكن ابنه الثالث يوحنان هوركانوس والذي كان حاكما لجيزر استطاع أن يعود إلى أورشليم وأن يسيطر على الانقلاب، ومن هناك أعلن نفسه كأول ملك حشموني (١٣٥ - ١٠٤ق.م) سنة ١٣٥ قبل الميلاد، مما اضطر تلمي للهروب إلى شرقي الأردن، وفي تلك المرحلة الحرجة استطاع السلوقيون أن يهزموا هوركانوس، وأعادوا يهودا إلى حظيرة السلطة السلوقية مرة أخرى، وأجبر العاهل السلوقي أنطوخيوس السابع هيركانوس أن يشارك بقوة يهودية في حربه ضد الفرثيين، وقد سُحق السلوقيون وأُسر هيركانوس من قِبل الفرثيين ثم أُطلق سراحه، وعاد سنة ١٢٩ قبل الميلاد إلى ولاية يهودا التي أعلن استقلالها ثانية بعد الضعف الشديد الذي حل بالقوة السلوقية.

وقد استطاع هيركانوس الذي استفاد من الصراعات السياسية السلوقية المركزية، ومن الفراغ النسبي والعابر في المنطقة، وقام بتوسيع سلطته، فاحتل موآب بعاصمتها مأدبا، واحتل السامرة وعاصمتها شكيم (نابلس)، وأحتل أدوم وأجبر شعبها على التهود، ولكنه كان يترك المدن الهيلينة كمستوطنات مستقلة، ولكن الحشمونيين في مرحلة لاحقة أخضعوا

بعض المستوطنات الهيلينية لهم وقاموا بتهويد مدينة صفورية (سبورس) مركز الجليل، وقد تولى الحكم بعد موت هيركانوس ابنه أرسطوبولس (١٠٤ - ١٠٣ق.م) الذي كان قد أوصاه والده قبل موته أن يصبح كاهنا أعظم، وأن يترك الإدارة المدنية لأمه، وبدل أن ينفذ أرسطوبولس وصية والده قام بسجن أمه حتى ماتت جوعا، كما أنه سجن أخوته أيضا، وقتل منهم أنتيجونوس، وقد مات أرسطوبولس بعد سنة تقريبا من توليه الحكم.

وبعد موت أرسطوبولس، تولى الحكم أخوه ألكسندر يناي (١٠٣ - ٧٦ق.م)، وكسبب لطغيانه الشديد ظهرت أو برزت المعارضة الفريسية، وقد استطاع ألكسندر يناي بقوته العسكرية أن يوسّع حدود الدولة الحشمونية إلى أكبر مساحة ممكنة بعد أن ضم الساحل إليها، كما أنه أجبر الأيطوريين العرب الذين كانوا يسكنون في الجليل على التهود.

وقد حاول الاستيلاء على غزة سنة ٩٦ قبل الميلاد، ولكن ملك الأنباط الحارث الثاني (أبروتيموس) (١١٠ - ٩٦ق.م) ناصر حاكم مدينة غزة، واستمرت المعارك الضارية حتى عهد عبادة الأول، الذي حقق انتصارا على الميكابيين، واستولى على حوران ومناطق أخرى في شرقي الأردن.

إن القسوة التي اتصف بها ألكسندر يناي، أدت داخليا إلى تنامي قوة المعارضة الفريسية، والتي استعانت بملك سوريا السلوقي ديمتريوس، الذي أتى بجيشه إلى المنطقة، ومعه الكثير من الجنود اليهود، والجدير ذكره أن السلوقيين بعد انتصارهم بقيادة سلوقس على البطالمة سنة ١٩٨ قبل الميلاد، قاموا ببناء عاصمتهم سلوقية على بعد ٢٠ ميل جنوب شرق بغداد (تل عمر الحالي) على الضفة اليمنى من دجلة، وبقيت عاصمة لهم حتى استطاع الفرثيون من طردهم سنة ١٣٩ قبل الميلاد، فنقلوا عاصمتهم إلى سوريا (١٣٩ - ٦٤ق.م)، وقد قام الملك السلوقي أنطيوخس الثالث (الملك الكبير) (٢٢٣ - ١٨٧ .م) بنقل ألفي أسرة يهودية من بلاد الرافدين إلى ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى، وشكّل منهم حامية عسكرية سلوقية لقمع التمردات على الحكم السلوقي.

وفي هذه الفترة، وفي هذا السياق، وعلى ضوء متغيرات دولية، غزا ملك أرمينية تكران الكبير شمالي فلسطين في سنة ٨٣ قبل الميلاد، وقام بنقل مجموعة من اليهود الذين كانوا يعملون بالتجارة، ووطنهم في أرمينية للاستفادة من خبراتهم التجارية، ولكن بعد استيلاء الفرس على أرمينية تم نقلهم أو نقل قسم منهم لنفس السبب إلى أصفهان.

وقد قَدِم مع الجيش السلوقي بعض الجنود اليهود لقمع التمرد في اليهودية، ومنذ البداية، انضم الجنود السلوقيون اليهود، إلى جيش ألكسندر يناي، الذي استطاع أن ينتصر على الجيش السلوقي في محيط مدينة شكيم (نابلس).

وبعد انتصار ألكسندر يناي المظفر على الجيش السلوقي، قام باضطهاد الفريسيين، وصلب أعدادا كبيرة انتقاما منهم على استنجادهم بالسلوقيين.

ولكن بعد موته، وتولي الحكم من قبل زوجته شلومتسيون (سالومي ألكسندرا) (٧٦ - ٦٧ق.م) تصالحت مع الفريسيين، ولكنهم، وبعد موتها، وبعد أن اندلع الصراع على الحكم بين ابنيها: هوركانوس الثاني الذي أيده الفريسيون، وأرسطوبولس الثاني الذي أيده الصدوقيون، دخلوا في الحرب الأهلية، والتي اشترك فيها أيضا أنتيباتر الأدومي، والحارث الثالث (أريتاس) (٨٧ - ٦٢ق.م) ملك الأنباط إلى جانب هوركانوس بعد أن فر إلى البتراء، وقد قام الحارث الثالث بقيادة خمسين ألف مقاتل بحملة عسكرية، وانتصر على السلوقيين في قانا

الجليل، وقتل ملكهم انطوخيوس الثاني، واستولى على مملكة يهودا وحاصر أورشليم، وأثناء حصاره، وفي ذروة هذه الحرب الأهلية بدأت قوات روما بقيادة بومبي تقترب من المنطقة، وطلبت من الحارث أن ينهي حصاره لمدينة أورشليم والجلاء عن يهودا والعودة بقواته إلى البتراء، وقد أذعن الحارث لطلب بومبي، ولما وصل بومبي إلى محيط القدس، رفض أعيان أورشليم، بما فيهم الكهنة، ومعهم بعض العامة، تسليم المدينة إلى بومبي، ولكن سرعان ما قام أتباع هيركانوس الثاني بفتح الأبواب، وبينما سلّم أرسطوبولس الثاني نفسه طواعية إلى بومبي، بقي الكهنة معتصمين في مبنى الهيكل، وقد قام بومبي بمهاجمته، وقتل المعتصمين فيه، كما قام بخلع أرسطوبولس الثاني من الحكم ونفاه إلى روما، وعيّن هوركانوس الثاني كاهنا أعظم وقائدا للشعب، ومنحه لقب ملك روماني (دوكس)، ومنحه بعض الصلاحيات السياسية المحددة، وبذلك تحولت اليهودية إلى مقاطعة رومانية بعد أن دام استقلالها لمدة ثمانية عقود.

اتسمت الحركة الحشمونية بطابع هيليني، وكان القائد الميكابي يسمّى في بداية الحركة بالزعيم، وقد تولى قيادتهم خمسة زعماء، ثم أتى بعدهم مرحلة الملوك السبعة وقد ابتدأهم يوحنان هوركانوس والذي أعلن نفسه كأول ملك حشموني (١٣٥ - ١٠٤ق.م)، وقد اعتمدت الحركة الحشمونية اقتصاديا على الزراعة، أما دينيا فقد استندت على الكهنة الصدوقيين، أما الفريسيون الذين كانوا يتمتعون بمستوى ثقافي أعلى فكانوا من أعضاء الطبقة الوسطى من التجار وكانوا يعارضون الطابع الهيليني لمقاطعة يهودا، والتي تبناها، إضافة للكهنة الصدوقيين، الطبقة العليا المشكلة من الإقطاعيين وكبار التجار وجامعي الضرائب، أما الطبقة الدنيا فكان تأثيرها هامشياً، وقد استفادت القيادة الحشمونية من فراغ القوى العالمية في تلك المرحلة.

كان الحشمونيون في بداية حركتهم الثورية قد حاربوا الهلينة بكل ما أوتوا من قوة، ولكن بعد أن اصبحوا ملوكا تراجعوا عن موقفهم السابق، فتسامحوا، بل وشجعوا على تفشي الثقافة الهلنستية في بنية المجتمع والسلطة اليهودية، وقد حمل حينها الفريسيون لواء مقاومة الهلينة، وبذلك أصبحوا أيضا معارضين للحشمونيين، لا سيما وأن الملوك الحشمونيين كانوا يعتمدون على تنسيب عناصر مرتزقة وثنية في جيشهم.

وكان التأثير الأكبر الذي خلفته المرحلة الهيلينية تأثيرا ثقافيا على بنية اليهودية، فقد تحولت عاصمة اليهودية الدينية التي كانت ذات طابع أرثوذكسي من بابل إلى الإسكندرية التي حملت لواء الليبرالية، حيث فيها تمت ترجمة التوراة إلى اليونانية، وقد احتاجت هذه الترجمة التي قام بها سبعون كاهناً مدة مئة عام تقريبا، وكانت أهم الفلسفات التي أثرت في اليهودية هما الفلسفة الأبيقورية، والفلسفة الرواقية.

الفلسفة الأبيقورية:

وهي التي تنسب إلى أحد أهم فلاسفتها أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ق.م)، وقد اتخذت هذه الفلسفة خطابا شعبيا قرويا بسيطا، وتوجهت، أو حاولت أن تنظم علاقة الفرد مع المجتمع بعيدا عن السلطة، والسياسة، والمناصب، والطموح، كما أن هذه الفلسفة وعلى الرغم من شعبيتها، دعت إلى التنور، والتخلص من الخرافات، والأساطير، والغيبيات، والخوف من المستقبل، والموت، والحياة الأخرى التي نفت وجودها، وذهبت إلى أن الحياة الحقيقية التي

يمكن أن يعيشها الإنسان هي الحياة الخيرة التي تجعل المرء قانعا، هادئا، مسالما، مطمئنا، راضيا بما تقدمه الحياة لإنسان من خصائص، ومزايا، وقدرة على التعامل مع ما تطرحه الحياة له، والتلذذ بتحقيق أفضل ما يمكن تحقيقه دون الاتكال على اليأس، أو على التمني، أو التوهم، أو على القوى الغيبية، أو الذهاب بعيدا بالطموحات والأحلام، وبشكل مختصر كان هذا المذهب يحاول الوصول إلى كل ما يمكن أن يؤدي إلى راحة الضمير، والتخلص من قلق، وخوف الإنسان، و لا سيما خوفه من الموت، ومن الآلهة، وكان هذا المذهب يرى أن الإله، إن كان له وجود، فهو ليس له أي علاقة أو تدخل في شؤون الحياة بتجلياتها كافة.

الفلسفة الرواقية:

وهي الفلسفة التي كان قد أسسها زينون بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، وهي الفلسفة السياسية اليونانية التقليدية، ولذا فهي اتخذت من النظم، والأحكام نهجا لها، فذهبت إلى أن الكون يتحرك ضمن نظام دقيق، يتحكم به عقل لا يمكن أن يخطئ أبدا، وهذا العقل الكوني له علاقة خاصة، ومميزة مع الإنسان تحديدا، وأن لدى الإنسان عقلا صغيرا هو جزء من العقل الكبير، وهذا العقل يمكن له أن يتحكم بأحاسيس الإنسان، وعواطفه، وبذلك يستطيع الإنسان أن يصل إلى السعادة بمقدار ما يستطيع أن يسيطر على إرادته، وأحاسيسه، وعواطفه الهدامة المعادية للآخر، كما ذهبت هذه الفلسفة إلى أن السعادة هي الفضيلة، والفضيلة هي أن نكون كما يحبنا الآخرون أن نكون، وأن نخدم الآخرين كما نحب أن يخدمنا الآخرون، وعلى الإنسان أن يوازن بين ما يمليه علينا العقل المطلق، وبين ما هو ممكن، وهذا يمكن تحقيقه من خلال عمل الواجب، ومن هنا فقد أولت هذه الفلسفة الأخلاق الدور الأهم في الحياة، كما دعت الإنسان أن يدجن نفسه مع حكم الطبيعة، وأن يحاول البحث عن الحقيقة، بما يؤدي إلى راحة ضميره، وإلى وصوله إلى سلام داخلي، وهي الفضيلة التي يجب أن ينشدها الإنسان، وبذلك فإن الإنسان يمكن له أن يعيش غنيا على الرغم من فقره، وحرا على الرغم من قيوده، وسعيدا على الرغم من منغصات الحياة، وهذه الفلسفة تشابهت في كثير من تصوراتها مع الفلسفة الكلبية التي كانت ترى أن على الإنسان أن يحاول أن يعيش بسيطا في هذه الحياة، ودون تعقيدات الأنظمة، والقوانين، وحتى الأعراف الاجتماعية، ومن هنا فقد عاش ديوجين فيلسوف الكلبية الأول عاريا في برميل.

وكان فيلسوف الرواقية الأول زينون قد بشر بدولة أو مدينة العالم المتحد، مدينة العقل، والمؤاخاة، مدينة الله، المدينة الأكثر رحمة، واتساعا، وقد أحدثت الفلسفة الرواقية الأرستقراطية، الأخلاقية أثرا كبيرا في اليهودية، على الرغم من أن الرواقيين كانوا يكرهون اليهود لأن التبشير اليهودي كان يحول دون انتشار الأفكار الرواقية.

وقد تأثرت اليهودية بالفلسفات الهلنستية على تعدد مذاهبها، وعلى كافة الصعد الاجتماعية، والسياسية، والدينية، وهو الذي أدى إلى اندلاع عدة صراعات يهودية اجتماعية بينية، واجتماعية سلطوية، وتمردات متعددة، أتت في سياق حراكية اجتماعية واسعة في كل الأقاليم التي كانت تخضع لحكم الإغريق، ومنها ثورة العبيد في صقيلية سنة ١٣٦ قبل الميلاد بقيادة العبد السوري يونوس، كما حصل أيضا في اليهودية، في هذا السياق، تمرد، وعصيان على الحكم السلوقي، ولكن التأثير الأكبر الذي أحدثته الفلسفة الهلنستية في اليهودية، فهو تأثير فلسفي في بنية الدين اليهودي، حيث أدى اندخال الفكر الهيليني (الفلسفي - العقائدي)، ضمن البنية السكانية، إلى أزمة حضارية فكرية، قادت إلى انقسام المجتمع اليهودي لاهوتيا إلى عدة مذاهب، وقد كان لتلك المذاهب التي تبلورت في سياق الثورة الميكابية بعدا سياسيا، وقياديا بالنسبة للمجتمع، وأهم هذه المذاهب ثلاثة هي:

- المذهب الفريسي (الأحبار أو الربانيين أو الحسيديم):

كان الصدوقيون من أطلق عليهم هذه التسمية (الفريسيون) والتي تعني المنعزلون أو المنفرزون، وحسب كمال الصليبي تعني المفسرين، وهي مشتقة من كلمة فرش العبرية التي تعني فسر، وهم معلمون وليسوا من الكهنة، ولكن الفريسيين كانوا يطلقون على أنفسهم تعبير الأحبار أو الربانيين.

تعود جذور الفريسيين إلى القرن الرابع قبل الميلاد، والبعض يُعَدّونهم من مريدي عزرا الكاهن، وقد ظهروا كرد فعل يهودي على اندخال الثقافة الهيلينية، وقد تبنوا الدفاع عن وحدة الدين ضد المؤثرات الخارجية لا سيما في زمن الميكابيين، وهم الذين قادوا الحراكية التاريخية اليهودية فيما يدعى بالهيكل الثاني، وكانوا وراء التمردات والثورات اليهودية في العهدين اليوناني، والروماني انتهاء بثورة باركوخبا، إلا أنهم لم يبرزوا على الساحة إلا من خلال الصراع الداخلي على السلطة، وقد بدؤوا بالظهور بعد ثورة المكابيين في حدود سنة ١٦٥ قبل الميلاد، وبرزوا في عهد يوحنا هيركانوس (١٣٥ - ١٠٤ق.م)، والذي كان فريسيا في البداية، وبعد خلاف معهم انضم إلى الصدوقيين، وفي عهد الطاغية ألكسندر يناي (١٠٣- ٧٦ق.م) أصبح الفريسيون يشكلون حركة المعارضة الشعبية القوية، وقد قام ألكسندر يناي باضطهادهم بعد أن استنجدوا بالسلوقيين.

كان للفريسيين تأثير، وهيبة كبيرة على عامة الشعب، فأغلبهم ينتمي إلى الطبقة الوسطى الحرفية، والذين كانوا يمتازون بثقافة واسعة، ومعرفة عميقة بالشريعة، والأفكار الفلسفية والدينية للشعوب، على الرغم من أنهم لم يكونوا محبوبين كثيرا من قبل الشعب، إلى أنهم كانوا مرهوبي الجانب، حتى أن ألكسندر يناي - وعلى الرغم من عدائه الشديد لهم - أوصى زوجته شلومتسيون (سالومي ألكسندرا) (٧٦ - ٦٧ق.م) وهو يحتضر أن تتحالف مع الفريسيين، وقد أخذت سالومي بوصية زوجها، وبذلك أصبحوا هم القوة التي تقف وراء العرش الملكي، وبعد موتها وقف الفريسين إلى جانب ابنها هوركانوس الثاني، بينما وقف الصدوقيون إلى جانب ابنها أرسطوبولس الثاني، وأثناء الصراع على السلطة وصلت قوات روما، وأنهت هذه الصراعات.

وقد التزم الفريسيون السلم منذ دخول بومبي المنطقة، على الرغم من أنه انشق عنهم الجماعة الغيورية الثورية، ولكن الفريسيين في النهاية انظموا إلى حركة التمرد سنة ٦٦

للميلاد، وبعد سقوط أورشليم سنة ٧٠ للميلاد تولى الفريسيون القيادة الروحية للجماعات اليهودية، وساهموا بإعادة بناء اليهودية، كما كان الأمر في مرحلة السبي البابلي.

كان المذهب الفريسي، أكبر المذاهب، عددا، وحضورا، وله العدد الأكبر من المقاعد في السنهدرين، وعلى الرغم من أن هذا المذهب السياسي الديني ذو طابع شرقي آرامي دهري، فقد أدخل إلى اليهودية الأفلاطونية بما تحتويها من طهر ومحبة وخلود النفس وصلاح المجتمع، كما أخذ من الفيثاغورثية الزهد، ومن الرواقية عقيدة اللوغوس أو الكلمة، وبذلك اتسم هذا المذهب بالروحية والتي كانت أبعد ما يمكن عن المادية اليهودية الموسوية.

وأعضاء هذا المذهب، على عكس الصدوقيين، يؤمنون بالبعث واليوم الآخر والقضاء والقدر، إلى جانب إيمانهم بوجود الإرادة الإنسانية في الاختيار بين الخير والشر، كما أنهم كانوا يؤمنون بخلود النفس والروح من خلال التقمص أو الاستنساخ، ووجود الملائكة الذين يأتمرون بأمر الله، والجن والعفاريت والأبالسة الذين يأتمرون بأمر الشيطان (عزرائيل)، وعلى الرغم من أن هذا المذهب قد آمن، وبشّر بمجيء المسيح، بل وأن يوسف النجار حفيد زربابل، وسليل بيت داود، والرسول بولس كانا من أتباع هذا المذهب، إلا أن المذهب الفريسي، بحسب ما جاء في الإنجيل، كان أشد المذاهب عداء للمسيح عيس ابن مريم، والذي بدوره ناصبهم العداء الشديد، ووجه لهم توبيخات شديدة اللهجة، كما أن يوحنا وصفهم بأولاد الأفاعي، كما وصفوا أيضا، من قبل المسيحية، بعميان يقودون عميان، وجاء في إنجيل متى {ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم لذلك تأخذون دينونة أعظم، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا ومتى حصل تضعونه ابنا لجهنم أكثر منكم ضعفا، ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن، من حلف بذهب الهيكل يلتزم، أيها الجهال والعميان، أيهما أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدس الذهب؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم، أيها الجهال والعميان، أيهما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدس القربان؟ فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه، ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله والجالس عليه، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتم أثقل الناموس}.

ونلاحظ هنا أن إنجيل متى يتحدث عن الفريسيين كما لو أنهم كانوا كهنة، وجامعي ضرائب، وقيّمين على الهيكل، أي كما لو أنهم الصديقيون، فهل كان المسيح يجمع بينهما، أم أن كاتب السفر لم يكن مطلعا على الفارق بين الفريسيين والكهنة الصديقيين، وحسب التصور المسيحي فإن الفريسيين هم من أوصلوا المسيح إلى الصليب.

وقد طوّر هذا المذهب يهوه إلى إله واحد خالق سماوي شامل، موجود في كل مكان، ويمكن التعبد إليه في أي مكان، ولذا شجعوا على بناء المعبد اليهودي في أي مكان يتواجد فيه اليهود، كما أن أعضاء هذا المذهب يرون أن رسالة اليهود العالمية هي رسالة تبشيرية، وعلى عاتقهم تقع هداية الشعوب، ولذلك قاموا بأعمال تبشيرية خارج فلسطين، الأمر الذي أدى إلى تزايد في تعداد اليهود في الإمبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد، وقد جاء في الإنجيل «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون

البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا. ومتى حصل تصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا.» متى٢٣، ونلاحظ هنا أن إنجيل متّى يميز بين الكتبة والفريسيين، على الرغم من أن الكتبة كانوا، أو كان معظمهم من الفريسيين، وقد أطلق عليهم الإنجيل لقب النامسيين.

والفريسيون، وقبل أن يأخذوا اسمهم هذا، أي بمعنى أن النهج، أو التيار الفريسي في تشكيلاته الأولى، هو الذي قام بتدوين، وتحرير التوراة، بدءا بمرحلة السبي البابلي، وبالتالي يمكن اعتبار عزرا أول الفريسيين.

والفريسيون، بما فيهم الناموسيون، والكتبة، وغير ذلك، كانوا يقدسون النص، ويُعَدّون أن التوراة خُلقت كما هي منذ الأزل، ويذهب البعض إلى أن المصدر الكهنوتي في التوراة هو مصدر فريسي، كما أن هناك شبه إجماع على أن الفريسيين هم من قاموا بكتابة أسفار المزامير والأمثال والجامعة، في الفترة ما بين منتصف القرن الثاني ونهاية القرن الأول قبل الميلاد، وخير ما يمثل رؤية الفريسيين هو سفر مزامير سليمان، الذي تمت كتابته بعد سقوط يهودا بيد الرومان، وهذا الحدث الذي هزّ اليهودية بعمق شديد، كان له تأثير كبير على المذهب الفريسي على وجه التحديد، فبينما كان الفريسيون يشكلون حراس الشكل، وسياج الناموس في اليهودية، راحوا يميزون بين الثابت، والمتحول، وبين المطلق، والنسبي، وتحولوا من تقديس الشكل، إلى تقديس الروح، وذهبوا إلى أن الثابت في المطلق، يتجلى في الحاضر بأشكال متعددة حسب صروف الزمان، وعلى هذه الفلسفة كتبوا المشنا التي قاموا بجمعها من على ألسنة الأحبار، والتي تتألف من ٦٣ مقالة، وتُعَدّ هي الأساس في التلمودين الأورشليمي، والبابلي، والمشنا هي إعادة تحرير، أو تفسير لتوراة موسى، وقد قام علماء اليهود في فلسطين بتفسير المشنا وهذا التفسير دعي بالجمارا، وبذلك تشكل التلمود الأورشليمي، أو الفلسطيني، كما قام العلماء اليهود في العراق بتفسير المشنا وبذلك تشكل التلمود البابلي.

ويُعَدّ التلمود حالة وسيطة بين التوراة والحياة، أي هو الذي يمثل التوراة الراهنة التي يمكن لها أن تشرّع لما يستجد في الحياة ولم تنص عليه التوراة المدونة، وللتلمود من القدسية ما للتوراة، بل إن اليهود يُعَدّون التلمود هو التوراة الشفوية، والتي كان قد أملاها الرب يهوه على موسى، ومنه انتقلت شفويا إلى يشوع، ومنه إلى القضاة أو الشيوخ الذي كان آخرهم صموئيل، ومنه انتقلت التوراة الشفوية إلى الأنبياء في عهد المملكة المتحدة، ثم أنبياء المملكتين، والذين منهم تم نقل التوراة الشفوية إلى رجال الكنيس في السبي وما بعده، ومنهم إلى الكتبة (السفريم)، وهم يشكلون جزءاً من الفريسيين، الذين دونوها في كتاب التلمود، وتم توثيقه في القرن الثاني الميلادي، وهناك شبه إجماع على أن من كتب المشنا هو يهوذا الناسي، وهناك من يذهب إلى أن التلمود بدأ بكتابته عزرا في بابل، وقد شارك في كتابته نحو سبعة آلاف كاتب من الأحبار، والمثقفين، أما تاريخيا فتعود كتابة التلمود إلى ثلاث مراحل:

التلمود الأورشليمي أو الفلسطيني: وبدأ بكتابته يوحنا بن زكاي بالقرب من يافا بعد سقوط القدس في القرن الميلادي الأول، ويضم اثني عشر مجلدا.

التلمود البابلي: وهو التلمود الأساسي، وكتب في العراق نحو سنة ٢٢٠ للميلاد، ويضم ٦٣ مجلداً.

وقد انتهى اليهود من كتابة التلمود سنة ٥٥٠ للميلاد، وذلك بعد أن تم تحقيقه بما لا يتعارض مع تعاليم التوراة، ومن النقاط الملفتة للنظر في التلمود، هو إبراز احتقار اليهود

للنساء، فهن «شرهات، ومتصنتات وكسولات وغيورات، وهن أيضا كثيرات الشكوى وثرثارات»، «أنزل الإله عشرة مكاييل من الكلام للعالم وأخذت النساء تسعة».

أما النقطة الثانية المميزة في التلمود فتتمثل في عودة اليهود ثانية إلى تجسيد الرب يهوه، على عكس ما كان الفريسيون عليه في البداية، وعلى عكس ما أتى به الأنبياء الكبار في التوراة الذين حاولوا أن يطوروا الرب نحو المطلق من خلال تجريده.

والنقطة الثالثة الملفتة للنظر في التلمود هي التعبير الصارخ عن العقلية العنصرية، والشوفينية، والحقد، والضغن، والعداء والاحتقار اليهودي لكل الشعوب (الأميين)، والحضارات، والأديان، وبخاصة ضد الدين المسيحي، وضد الشعب الكنعاني، فعلى الرغم من انتهاء الصراع اليهودي الكنعاني، فإن اليهود لم ينسوا أن يسجلوا أحقادهم التاريخية ضد الكنعانيين في التلمود، بحيث شرّع التلمود لليهودي أن يقتل كل إنسان غير يهودي لأنه ربما كان متحدّراً من القلة من الكنعانيين الذين لم يستطع الحقد اليهودي أن يبيدهم حسب ما جاء في التلمود، كما أن التلمود أباح لليهود ما لم تبحه التوراة من قتل وسرقة وربا وغش، وعمل جميع أنواع الفواحش في النجسين (غير اليهود - الغوييم - الأميين)، وهي من المفاهيم التي رسّخها التلمود عند اليهود، والغوييم، أو الأمي تعبير يشير إلى الجاهل، غير المتحضر، ثم استخدم هذا التعبير للدلالة على كل من لا يعرف القراءة والكتابة:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٧.

والجدير ذكره هنا أن العرب لم يكن لديهم أدنى فكرة عن التلمود حتى العصور الحديثة، فقد كان اليهود يحرصون على أن لا تطلع الأمم على هذا الكتاب لما فيه من عنصرية، وكره، وحقد على الشعوب جميعا، وبالأخص على المسيحيين منهم لما فيه من إساءات فظيعة للمسيح، والمسيحية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان اليهود يذهبون - بعقلية عنصرية - إلى أنهم قدّموا للبشرية التوراة، وأن عليهم أن يحافظوا على التلمود لأنفسهم فحسب، ولذا فقد كانوا يُعَدّون التلمود العاصمة الخاصة بهم، بعد أن أصبحت التوراة مرجعا يهوديا، ومسيحيا، ومن هنا فقد قام التلمود بالحفاظ على اليهودية في زمن الشتات، وهو الذي استطاع أن يعاكس التأثير السلبي للتهود من جهة، وخروج اليهود من الحظيرة اليهودية نحو الأديان الأخرى وبالتحديد المسيحية من جهة أخرى، وبذلك وعلى الرغم من أن اليهودية أصبحت دينا شعوبية فقد ساهم التلمود إلى درجة ما ببقاء الشعب اليهودي، أو الأمة، أو القومية اليهودية (مع التحفظ على كلمة الأمة، والقومية والتي لا أقصد من خلالها البعد الإرثي الأثني في هذه الكلمة) لها خصوصيتها ومميزاتها، بل إن التلمود هو من وطّد لدى اليهود مفهوم أنهم أمة واحدة ويجب الحفاظ على مقوماتها، وبذلك فعلى الرغم من شتات اليهود فقد حاولوا ما استطاعوا أن يبقوا كما لو أنهم كتلة واحدة.

- المذهب الصدوقي:

يُعَدّ المذهب الصدوقي ثاني أكبر الطوائف الدينية السياسية بعد المذهب الفريسي، والذي يعود إلى بيت صادوق (وهو الكاهن صادوق الذي عاصر الملك سليمان)، ويعود أغلب أتباعه إلى الجماعات الغنية الأرستقراطية، وأصحاب السلطان والنفوذ (الأشراف) من اليهود، وكان أعضاء هذا المذهب على وفاق مع السلطة الحاكمة، وكان نفوذهم السياسي أقوى من نفوذهم الديني.

تعود بدايات هذا لمذهب إلى مرحلة ما بعد السبي، وتحديدا إلى المرحلة الميكابية، وقد تصدّر هذا المذهب الواجهة السياسية في عهد يونثان، وفي عهد رئيس الكهنة يوحنا هيركانوس (١٣٥ - ١٠٤ق.م) الذي كان ميالا ومواليا للفريسيين، وأصبح موالياً للصدوقيين وبذلك أصبح الكهنوت مرتبطا بالصدوقيين، وقد تحالف الحشمونيون سياسيا مع الصدوقيين الأرستقراطيين، ولم ينقطع هذا التحالف إلا على عهد سالومي ألكسندرا التي تحالفت مع الفريسيين حسب وصية زوجها، ولكن بعد موتها، وانفجار النزاع على السلطة بين ابنيها، وقف الصدوقيون مع ارسطوبولس الثاني ضد أخيه هيركانوس الثاني الذي وقف الفريسيون إلى جانبه، وانتهى هذا الصراع بوصول جيوش روما سنة ٦٣ قبل الميلاد، التي عينت أرسطوبولس الثاني رئيسا للكهنة، كما وقف الصدوقيون إلى جانب ابنه أنتيجونس ضد عمه هيركانوس الثاني سنة ٤٠ قبل الميلاد، وبعد استيلاء هيرودوس على السلطة قام بالانتقام من أنصار أنتجونس، وكان على رأسهم الصدوقيون، وقد قام هيرودوس بإضعاف سطوتهم، خاصة وأنه حجّم أيضا دور السنهدرين، ولكن بعد أن عادت يهودا ولاية رومانية سنة ٦ للميلاد استرجع الصدوقيون شيئا من سطوتهم تحت رقابة الوالي الروماني، وفي النهاية انتهى وجودهم بتدمير الهيكل سنة ٧٠ للميلاد، في الوقت الذي استطاع المذهب الفريسي الاستمرار من خلال الحاخامات الربانيين.

كان المذهب الصدوقي أشد تعصبا ليهوديته، وكان يُعَدّ الحزب المحافظ في اليهودية، ومن هنا فقد قاوم الغزو الفكري للفلسفة اليونانية، ولكنه تأثر بعض الشيء بالفلسفة الهيلينية بشكل عام، والأبيوقورية بشكل خاص، وتمسّك بالشريعة الموسوية التوراتية فقط، على عكس المذهب الفريسي الذي تمسك بالشريعة الشفوية، والمذهب الصدّوقي ساهم بتشكيل جمع السنهدرين، وكان له ٢٠ عضوا تقريبا، وكانت رئاستهم من عائلة هليل لمدة ثلاثة قرون، والسنهدرين هو الذي قام باستصدار حكم الصلب على السيد المسيح عيسى ابن مريم سنة ٢٩ للميلاد حسب التأريخ المسيحي.

وقد أنكر المذهب الصدوقي وجود القضاء والقدر، واللوح المحفوظ، وذهب إلى أن الإنسان مسؤول بشكل كامل عن أفعاله، أي بمعنى أن الإنسان مخير، وله حرية التصرف، وبذلك فإن الخير والشر هما نتاج الإرادة الإنسانية الحرة، ومن هنا جاء تشديد هذا المذهب على تعزيز دور القيم الأخلاقية التي تدعوا إلى السلم، والمؤاخاة في العلاقات الإنسانية، كما أنه لم يتبن فكرة شعب الله المختار، وأنكر يوم القيامة والبعث والحياة الأبدية والعقاب والثواب، والنفس الخالدة، فالنفس تموت بموت الجسد، كما أنكر هذا المذهب وجود الملائكة والشياطين، وكان يذهب إلى أن الحياة مادية، ويجب أن تقوم العلاقات الاجتماعية على أساس ذلك، الأمر الذي جعل هذا المذهب يبدو وكأنه مذهبا إلحاديا، على الرغم من أنه قائم على الإيمان بوجود إله كوني شامل مجرد، وعلى الرغم من أن هذا المذهب لا يؤمن بفكرة المسيح المخلص، إلا أن أتباع هذا المذهب كانوا على علاقة طيبة مع المسيح، أو على الأقل

لم يناصبوا السيد المسيح العداء كما كان الأمر بالنسبة للمذهب الفريسي، كما أن هذا المذهب لم يعترف بالتوراة الشفوية (التلمود)، ولم يعترف سوى بأسفار موسى الخمسة.

والصدوقيون على اعتبار أنهم كهنة فقد ارتبطوا بالهيكل، وكانوا ينعمون بالضرائب والنذور والهدايا، وهذا ما جعلهم طبقة ارستقراطية وراثية، وقد عملوا كطبقة وظيفية استغلت اليهود لمصلحة الإمبراطورية الحاكمة (الهيلينية، ثم الرومانية)، وقد اختفوا باختفاء الهيكل سنة ٧٠ للميلاد، ويذهب البعض إلى أن فرقة القرائين التي تشكلت في بغداد في العصر العباسي في أواخر القرن الثامن ميلادي (أحدث الفرق اليهودية وأقلها)، والتي اشتهرت في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور، وكان أشهر قادتها هو الحبر عنان بن داود، ولذا فقد كانت تعرف أيضا بالعنانية، هي إحياء للمذهب الصدوقي، والقراؤون لا يؤمنون إلا (بالمقرا) أي الكتاب المقدس (التوراة).

- المذهب الأسيني (المغتسلون أو الزاهدون أو المتنورون):

وهو المذهب الذي زوّج اليهودية بالمذهب أو الفلسفة الفيثاغورثية، والذي طعم اليهودية بالزهد، وأخذ من الفلسفة الغنوصية الحب والمحبة شعارا، متأثرا بالمذاهب الرواقية، والكلبية الهلنستية، كما وتأثر بالعقائد الهندية (البراهمة والبوذية)، وكان أتباعه يعتقدون أن الإنسان يخضع لقوتين متنافستين هما قوة الخير التي يمثلها (أمير النور)، وقوة الشر التي يمثلها (أمير الظلام)، وهذا المذهب يبدو من هذه الزاوية كما لو أنه من العقائد الثنوية، كما هو الأمر بالنسبة للديانة الزرادشتية، كما أن أتباع هذا المذهب كانوا يدعون إلى السلام وينبذون العنف، ويلتزمون بالفضيلة، كما أنهم كانوا شديدي الإيمان بالملائكة والأرواح، وبالقضاء والقدر، وأن الله هو المتصرف الكلي بالأمور، وهو فقط صاحب المشيئة التي تدير كبائر، وصغائر الأحداث، كما آمنوا بعقيدة الخلود.

ولأن هذا المذهب اهتم بروح الدين، لذا فلم يهتم، بل ورفض، أداء الطقوس، والشعائر الدينية الموسوية، ورفض القسم، وتقديم الذبائح والقرابين، كما أنه رفض الملكية الفردية، وحمل أفكارا اشتراكية، فكان على المريد أن يتخلى طواعية عن ممتلكاته لمصلحة الجماعة التي يتم اختيار قادتها بالانتخاب وبشكل تراتبي، ضمن تنظيم هيكلي دقيق، وكانوا يطلقون على رئيسهم لقب معلم العدالة.

وكان أعضاء الجماعة يعيشون، ويأكلون مما يزرعون، ومما يربونه من الماشية، بشكل جماعي، كما أنهم أقروا مبدأ المساواة بين الأمم والشعوب، وعارضوا نظام الرق والاستعباد بشدة، وبذلك رفضوا فكرة شعب الله المختار، وحرّموا على أنفسهم العمل بالتجارة لأنها تمتاز بالإثم والجشع، كما أنهم حرّموا صناعة السلاح، ودعا هذا المذهب إلى الزهد والتقشف واعتزال النساء وشرب الخمر وأكل اللحم، كما أنهم كانوا يمارسون الطب، وأعمال السحر والتنجيم، كما أنهم كانوا يهتمون كثيرا بالطهارة الجسدية الشخصية، وقد اشتهروا بلباسهم الأبيض الأنيق، واهتمامهم بتهذيب شعورهم، وكان لهم طقوسهم الخاصة في الوضوء، وكانوا يقومون بالصلاة ثلاث مرات في اليوم، أولها عند شروق الشمس (صلاة الأسلاف)، وهم الذين أوجدوا فكرة التعميد بالماء، وكان يوحنا المعمدان (النبي يحيى)، والذي كان يعيش حياة تقشف كما هو حال الطائفة الأسنية، يعمّد من يشاء بمياه نهر الأردن، على اعتبار أنه النهر المقدس، ويُعتقد أن يوحنا المعمدان، ويسوع الناصري كانا

من أتباع هذا المذهب الذي شكّل فراش، أو نواة المسيحية الأولى، والجدير ذكره أن النبي يوحنا كان قد ادعى في البداية أنه المسيح، ولكن خوفه من السلطة السياسية والدينية جعله يدعي أنه المبشر بمجيء المسيح.

وإلى المذهب الأسني، وحسب رأي الأكثرية من الباحثين، تعود مخطوطات البحر الميت التي تم اكتشافها في كهوف قمران بالقرب من البحر الميت في منتصف القرن المنصرم، ولكن ما جاء في تلك المخطوطات لا ينطبق تماما على ما جاء به من تعريف لهذه الجماعة من قبل المؤرخين مثل يوسفوس (٣٧ - ٩٦م) الذي عاصر وجودهم وانتشار مذهبهم، فقد أُكتشف أن من بين جماعة قمران كان هناك نساء وأطفال، كما أن نصوص قمران كانت تتحدث عن الأنظمة والقوانين التي تحكم الزواج والطلاق، وكانوا يقومون بصناعة السلاح، وأيضا كانوا يأكلون اللحم، ولذا فإن بعض الباحثين يعتقدون أن الأسينيين ليسوا هم جماعة قمران.

ومما جاء في قصاصة غير مكتملة من وثائق كهوف قمران أن على أعضاء الجماعة التقيد بشريعة موسى حتى «مجيء النبي ومسيح هارون وإسرائيل»، وهذا يشكل صدى لما جاء في سفر التثنية من حديث ليهوه إلى موسى «إني أقيم لهم نبيا من بني أخوتهم مثلك، وأجعل كلماتي في فمه، فيكلمهم بكل ما آمره به» التثنية ١٨: ١٨-١٩، كما جاء في أعمال الرسل في العهد الجديد «فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من أخوتكم».

وأيضا هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: «نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من أخوتكم».

وهنا لي أن أطرح سؤلا مفتوحا على احتمالاته، ما المقصود، أو من هم أخوة بني إسرائيل الذي سيقيم الرب منهم نبيا مثل موسى..؟!

ويمكن للباحث أن يعتقد أنه فيما بين موت هيرودوس الكبير، وبين سقوط أورشليم على يد الرومان، قد ظهرت عدة شخصيات ادعت أنها المسيح، وكان أشهرهم هو يسوع الناصري، وقد تم تجميعهم أو توحيدهم في شخصية يسوع الناصري، وحسب اعتقادي فإن المسيح النصي الإنجيلي تم تحريره من قبل أعضاء هذه الطائفة بعد تفرق شملها، إثر سقوط مدينة أورشليم سنة ٧٠ للميلاد، وقد عرف أتباع هذا المذهب، بعد تدمير الهيكل، بالمسيحيين اليهود، أو الأبيونيين.

ويبدو أن مخطوطات كهوف قمران، والتي يعود أقدم نص فيها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، لديها الكثير من الحقائق حول بدايات المسيحية، والتي تتعارض مع ما هو متعارف عليه من قبل الكنائس المسيحية، وأنا لا أستبعد أن تجيب، أو توضح تلك الوثائق ما جاء في القرآن الكريم حول صلب المسيح الذي (شبه لهم)، ومن أجل ذلك، وبعد مضي نصف قرن على اكتشاف تلك الوثائق، لم يتم نشر إلا القليل من الوثائق، كما أن ملابسات نشرها، توضح أن هناك حقائق في تلك الوثائق لا يمكن البوح بها، لأنها تتعلق بجوهر الإيمان المسيحي من جهة، وبتاريخية مراحل تدوين التوراة.

ويمكن أن نضيف إلى المذاهب السابقة:

- الحسيديون (الأتقياء): وهم الذين شكلوا فرقة شكلت النواة الأولى للفريسيين، وشاركت في التمرد اليهودي الحشموني على السلوقيين، وهم يشبهون إلى درجة ما الأسينيين،

ويعتقد أنهم ذابوا فيهم بعد التمرد الحشموني، وبعد انشقاق الفريسيين عنهم، على الرغم من أنهم على خلاف الأسينيين لم يكونوا معتزلين، بل كانوا يشاركون في الحياة العامة، ولكنهم كانوا يشبهونهم من حيث طقوس الطهارة، وتقديم القرابين، ومن حيث النظرة الإنسانية الشمولية، والمساواة بين البشر، كما كانوا يدعون إلى السلم، والسلام في العالم، والمساوة بين البشر، وكان لديهم ميل لبث الروحانية في اليهودية التوراتية المادية، كما كان لديهم أفكار اشتراكية كما هو الأمر لدى الأسينيين.

- الغيوريون: أو المتحمسون لله، ويُعَدّهم البعض جناحاً سياسياً عسكرياً متطرفاً من المذهب الفريسي، وقد تشكلت هذه الفرقة على يد الجليلي يهوذا في السنة السادسة للميلاد، وكانوا يُعَدّون أنفسهم استمرارا للتراث المكابي، وأن هدفهم السياسي والعسكري هو التحرر من الوجود الروماني، وقد قاموا أو كان لهم اليد الطولى بالتمرد اليهودي سنة ٦٦ للميلاد بقيادة مناحم الجليلي زعيم عصبة الخناجر، وهو الجناح الأكثر تطرفا للغيوريين، وكانوا آخر من استسلموا في قلعة ماسادا سنة ٧٣ للميلاد بقيادة أليعازر بن جابر (أو بن يائير)، بقيامهم بانتحار جماعي على ذمة المؤرخ اليهودي يوسفوس.

- الهيريديون: (نسبة إلى هيرودوس ملك اليهود الأدومي في العهد الروماني) وهي فرقة سياسية تمثل تيار الاندماج مع الرومان.

- الجليليون: وهم أتباع يهوذا الجليلي الذي قال إن لا ملك لليهود سوى الله.

- **السامريون:**

يوجد شبه إجماع على أن السامريين يعودون إلى مزيج من الشعوب التي قام الآشوريون، في عهد سنحاريب باستقدامهم من بابل وسوريا وعيلام (أفغانستان)، وقاموا بتوطينهم في منطقة السامرة التي لم يتبق فيها من الشعب سوى القليل بعد أن قام الآشوريون بسبيهم، وتوطينهم بالتبادل مع شعوب أخرى، وقد اندمجت تلك الجماعات فيما بينها، واعتنقت اليهودية في تشكيلها الكنعاني، أو بالأحرى اعتنقوا العقيدة الإسرائيلية، أي قبل تطورها البابلي، والبعض يعتقد أن السامريين يعودون فقط إلى من تبقى من الشعب الإسرائيلي بعد السبي الآشوري سنة ٧٢١ قبل الميلاد، والبعض، ومنهم فيليب حتي، يعتقدون أن السامريين تشكلوا من مزيج، أو خليط ممن تم استقدامهم من أقاليم المملكة الآشورية، مع من تبقى من الإسرائيليين في منطقة السامرة.

وكان المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس، قد أنكر على السامريين يهوديتهم، كما روى يوسفوس أن من بين من عادوا في الدفعة الأولى من السبي البابلي مع زربابل كان من بينهم ٦٥٢ شخص ادعوا أنهم إسرائيليون، أي سامريون، ولكن، ولأنهم لم يستطيعوا أن يقدموا برهانا على ذلك فلم يعترف بهم على أنهم يهود، من قبل الكهنوت اليهودي، وقد أطلق عليهم اليهود لقب الكوشيم (الكوشيين) بعد العودة من السبي، كما أطلقوا هذا اللقب على المسيحيين أيضا، وكانت التوراة قد جعلت من الكوشيين من نسل كنعان بن حام، وهذا يعني أن السامريين، الذين هم بقايا بني إسرائيل، أو بقايا المملكة الشمالية التي كانت قد دمرت على يد الأشوريين، كانوا كنعانيين، وهذا يعني أن إسرائيل كانت كنعانية، وهو ما كنت قد ذهبت إليه.

وقد تمرد السامريون في العهد اليوناني، قبل الحكم الميكابي، على السلطة الدينية المهيمنة المتزمتة في أورشليم، ونقلوا مكان عبادتهم إلى عاصمتهم الدينية القديمة على جبل الجرزيم، وقاموا ببناء هيكل مقدس عليه، وقد دمرته الأسرة الحشمونية بعد رفض السامريين الانضمام إلى ثورة باركوخبا سنة ١٣٢ للميلاد، وعادوا مرة أخرى وبنوه بموافقة روما، وقد استمر السامريون في تواجدهم إلى أن تم طرد أكثرهم من مقرهم على جبل جرزيم حول هيكلهم المقدس الذي تم تهديمه بعد ثورتهم في عهد الإمبراطور الروماني زينو (٤٧٤ - ٤٩١م)، كما تعرضوا إلى الاضطهاد البيزنطي الأمر الذي قادهم إلى القيام بثورة ثانية في زمن جوستنيان الذي نكّل بهم وأنهى وجودهم سنة ٥٢٩ للميلاد، واستطاع أن يهرب ما تبقى منهم نحو إيران، وهناك اعتنق أكثرهم المسيحية، وحسب اعتقادي فقد هاجر البعض منهم إلى منطقة الحجاز، وقد كان لهم، إلى جانب الأسنيين، أثر كبير ومهم في التصور الإسلامي!، وقد عاد بعض السامريين إلى مدينة نابلس بعد الفتح العربي لفلسطين، وقد قاموا بمساعدة المسلمين في عمليات الفتح العربي للمنطقة، كما أنهم وقفوا إلى جانب المسلمين ضد الغزو الصليبي، والآن لم يبق منهم أكثر من ٢٠٠ شخص ما زال اليهود ينظرون إليهم بعين الريبة.

وأعضاء هذه الطائفة لا يؤمنون إلا بالأسفار الخمسة (التوراة)، وأيضا بسفري القضاة ويشوع، وما زال لديهم نسخة مخطوطة من التوراة يدّعون أنها تعود تاريخيا إلى ما قبل المسيح، وقد تم اكتشاف نص يتطابق مع التوراة السامرية في الكهف الرابع من كهوف

قمران، والسامريون لا يؤمنون بأي نبي بعد موسى ويشوع، كما أنهم لا يؤمنون ولا يعترفون بداود وسليمان، ولا يكنّون لأورشليم ولجبل صهيون أي قدسية، والبعض منهم ينفي عن نفسه صفة اليهودية، وقد جعلوا من جبل الجرزيم - الذي حسب اعتقادهم هو المكان الذي حاول إبراهيم أن يقدم ابنه قربانا للرب - مكانا لسكنى الرب يهوه، وهم يدّعون أن جبل جرزيم هو بيت إيل المكان المقدس عند الآباء الأوائل، كما يذهبون إلى أن موسى كان يتوجه بصلاته إلى بيت إيل «على جبل الجرزيم»، وقد بقي كذلك حتى غيره داود، وهو المكان الذي سيعود إليه المسيح المنتظر، كما يرون أن أنبياء اليهود الذين جاؤوا بعد يشوع هم الذين غيروا في الدين اليهودي (الإسرائيلي) الحقيقي، كما أن السامريين يؤمنون بأن الله واحد، وقد تبنوا جزءاً من الشهادة الإسلامية (أشهد أن لا إله إلا الله)، كما أنهم يؤمنون أيضا بيوم القيامة، وبالملائكة، والمذهب السامري شديد القرب من المصدر التوراتي الألوهيمي.

- المذهب القبالي:

يعود هذا المذهب إلى مرحلة الشتات اليهودي، ولكن، ولأنه المذهب العقيدي التصوري الوحيد الذي برز في مرحلة الشتات، ولأن جذوره الأولى تعود إلى العهد اليوناني، فقد آثرت إدخاله في هذا الموقع.

تمثل القبالة المذهب أو العقيدة الغنوصية الصوفية لليهودية، واليهودية تُعَدّ آخر الأديان التي أدخلت الصوفية في تصوراتها الدينية، وقد بدأ هذا المذهب باندخاله في اليهودية بتأثير الديانة الزارادشتية، في العهد الفارسي، ثم تطور بتأثير من الفلسفة الغنوصية اليونانية في العهدين اليوناني، والروماني، ثم تطور في العهد العربي في الأندلس، ثم برز كتيار مستقل في مرحلة الشتات اليهودي، وبالتزامن مع النهضة الأوربية، إلى أن هذا التصور لم يندخل، ويمتزج في مسام اليهودية، بل شكّل طبقة مستقلة في العقيدة اليهودية الجغرافية، وقد وقف هذا التصور مقابل، ومعاكس للتصور الطقوسي التلمودي.

والقبالة اليهودية عبارة عن مجموعة من الأفكار والطقوس والسلوكيات التي يعتقد معتنقوها أنها، أو بواسطتها يمكن معرفة الأسرار الكونية من خلال اندماج الإنسان، واتحاده مع عناصر الوجود على اختلافها، ويعتقد أتباع هذا المذهب أن الرب كان قد علّم أسرار القبالة إلى الملائكة، والتي بدورها علمتها، دون إذن وعِلْم الرب، إلى آدم بعد طرده من الجنة على أمل تخفيف معاناة الحياة عن البشر، ومن آدم انتقلت هذه الأسرار إلى نوح، ومنه إلى إبراهيم والذي، ودون قصد منه، علّمها للمصريين أثناء رحلاته إلى مصر، ومنهم أخذها موسى، ومنه ما زالت تتسلسل إلى يومنا هذا، وشعار القبالة اليهودية هو مجن (نجم) داود السداسية، والتي كانت قد أخذتها القبالة اليهودية عن فرقة القرائين اليهودية التي اشتهرت في بغداد في بداية العهد العباسي، وهي النجمة التي رفعتها الصهيونية شعارا لها، والتي كانت قد تأثرت كثيرا بالتصور القبالي اليهودي.

برز مذهب القبالة اليهودية بعد تشتت يهود المارانو من إسبانيا على يد المحاكم الكاثوليكية، ويُعَدّ كتاب الزهار الذي وضعه موسى الليوني (١٢٥٠ - ١٣٠٥م) أهم مصادر، ومراجع القبالة الحلولية الصوفية اليهودية التقليدية، وهو المذهب الذي ساهم في عودة الحمّى إلى الأفكار والمعتقدات المسيحانية الخلاصية، وكان أهم أتباع هذا المذهب الحلولي الغنوصي

شبتاي زيفي (١٦٢٦ - ١٦٧٦م) الذي ظهر في مدينة أزمير التركية، ثم تم نفيه إلى بولونيا، ومات فيها، وجاكوب فرانك (١٧٢٤ - ١٧٩٤م) الذي ظهر في بولونيا، والذي اعتبره أتباعه أنه المسيح اليهودي المنتظر، وهو الذي انقلب على التلمود، وعلى العقلية، والتصورات التلمودية، بل ويمكن القول أن القبالة اليهودية ككل هي محاولة يهودية للالتفاف على التلمود، والعقلية التلمودية، فبينما تكفّل التلمود بتنظيم الجانب الديني الشعائري الطقسي لليهود، قامت القبالة بتنظم حياة اليهود الروحية، وقد حققت القبالة انتشارا واسعا في الأوساط اليهودية في سياق القرنيين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، وبخاصة عند الفقراء البسطاء من اليهود، ككل الحركات التصوفية الدينية، وقد بدأت القبالة بالاضمحلال، بعد بروز التيار الصهيوني السياسي، ولم يبق من أتباعها سوى حركة غوش أيمونيم.

لقد أحدثت التحولات السياسية، والاجتماعية، والفكرية الكبيرة والعميقة التي شهدتها الدول الأوربية في عصر النهضة، أثرا كبيرا على حراكية الجماعات اليهودية، ولا سيما على تاريخ الغيتو، والذي كان ينهار في مكان، ويبنى في مكان آخر، وترافق ذلك مع عدة عمليات طرد للجماعات اليهودية من بلد، ودخولهم إلى بلد أوربي آخر، مع بعض عمليات الاضطهاد التي تعرضوا لها في أكثر الدول الأوربية، من قبل السلطة حينا، ومن قبل الشعوب حينا آخر، والتي ترافقت مع بداية تبلور بعض التيارات القومية، والطائفية الأوربية التي لم تخلُ من بعض الشوفينية، الأمر الذي مزّق الجماعات اليهودية بين الحدود السياسية، والقومية في القارة الأوربية، وأدى إلى مزيد من إرباك التطور التاريخي اللاهوتي اليهودي، وهو الأمر الذي جعل اليهودي اللامنتمي إلى الزمكان الأوربي، واللامنتمي إلى الزمكان اليهودي (الديني)، يتأرجح على رياح قلقة لا يعرف في أي لحظة سوف تغّير وجهتها، ولا يعرف إلى أي مجهول سوف تأخذه، خاصة بعد أن عانت الجماعات اليهودية من حالة الانفراط البنيوي الأثني القبلي العشائري العائلي الاجتماعي التي نتجت عن حالة الشتات، والتشتت بين شعوب، ودول، ولغات، ومجتمعات متعددة، والتي أدت إلى حدثية معقدة في الأنا الجماعية اليهودية، أهمها حالة القلق التي كانت نتاج تمزق اليهودي بين تمسكه بالقيم الرابضة في عمق الأنا الجماعية اليهودية لمدة قرون طويلة، وبين الاندماج ضمن المجتمعات الغربية الغريبة، وهو الأمر الذي كان يُغرق اليهودي بمشاعر الإثم نتيجة انسلاخه الأثني، والثقافي، والأنطولوجي التي تربى عليها اليهودي في الكنيس التوراتي التلمودي.

وقد استجابت الجماعات اليهودية إلى هذه التغيرات بأكثر من نمط، وطريقة، ولكن يمكننا أن نقسّم يهود الشتات حسب استجابتهم، وتكيفهم مع المجتمعات الأوربية في مرحلة عصر النهضة الأوربية إلى ثلاث فئات، أو ثلاثة تيارات:

- التيار، أو الفئة الاندماجية، التوفيقية: وهذه الفئة حاولت أن تتكيف مع المعطيات، والتطورات التاريخية التي تعيشها الجماعات اليهودية بين المجتمعات، والدول الأوربية، وغالبية هذه الفئة هم من اليهود السافارد الذين كان جلّهم ينتشرون في أوربا الغربية، والذين انخرطوا في النشاطات الاجتماعية في المجتمع الأوربي المسيحي، كما حافظوا على يهوديتهم، وتمسكوا بشعائرهم الدينية إرضاء، أو استرضاء، أو إلهاء، أو تخديرا للضمير الجمعي، أي بمعنى ما فقد تمسّك اليهودي الاندماجي بالطقوس والشعائر الدينية كي يوطّد هويته الأثنية الدينية خوفا من تماديه في الاندماج، وخوفا من انفراط هويته واندماجه في

المجتمع المسيحي الأوربي، أي بتعبير ما إن ممارسة اليهودي الاندماجي للشعائر الدينية اليهودية بصيغته التوراتية التلمودية لم تكن تتأتى من قناعات دينية لاهوتية، بل كانت تمثل تمسكا بفلكلور جماعته الأثنية التي ينتمي إليها، وقد استطاعت هذه الفئة المتنورة من تحقيق عدة نجاحات على كل الأطر السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والفكرية، حيث برز منهم عدة علماء، ومفكرين، ومبدعين، وساسة، ورجال مال.

- التيار، أو الفئة التلمودية الحاخامية المتطرفة: وهذه الفئة كان لها اليد الرئيسية في بناء الغيتو في أوربا الغربية، والشرقية، وقد حاول هذا التيار، أو هذه الفئة أن تتمسك بالغيتو، وتحافظ على جدرانه عالية وسميكة في المدن الأوربية أيضا، وغالبية هذه الفئة هم من اليهود الأشكناز في أوربا الشرقية، والذين هاجروا إلى أوربا الغربية، وبأعداد مميزة، في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، وهم الذين كانوا وراء بروز ما سمّي (بالمسألة اليهودية).

وهذا التيار كان يقف وراءه رجال الدين الحاخاميين، لا سيما المستفيدين ماديا، ومعنويا من تطبيق الشريعة اليهودية، والتي تحتاج إلى أن يتكوثر اليهود في جماعات من أجل الوصول إلى النصاب الذي يتطلبه إقامة الكثير من الطقوس والشعائر الدينية اليهودية، كما أن أتباع هذا التيار كانوا حراس التوراة، والتلمود، والمعبد، و (النحن) اليهودية المهددة بالانفراط في وسط أغلبية أثنية، ودينية مختلفة، وهذا التيار هو الذي قاد الجماعات اليهودية منذ بداية الشتات، وازداد بروزا بعد تصاعد التصور القومي الديني الأوربي، الأمر الذي جعل اليهود يشعرون بمزيد من التمسك باليهودية الدينية والأثنية، وخوفا من تمادي بعض اليهود المتنورين من الانسلاخ عن اليهودية، والاندماج مع المجتمعات الأوربية المسيحية، وهو الذي ساهم، مع المذهب القبالي، بتشكيل الصهيونية اليهودية.

ولم يألوا أرباب هذا التيار الكثير من الجهود في مسعاهم الذي نجحوا فيه، فعلى الرغم مما عرف عن الشخصية اليهودية من سرعة انزراعها، في الطبقة الاقتصادية للمجتمعات على اختلافها، إلا أنها كانت شخصية صلبة متكلسة على تصوراتها، وعلى قيمها ومعتقداتها وفلكلورها الأثني الديني، لا سيما وأنها شخصية لا يمكن لها أن تتخلى عن عقيدة شعب الله المختار التي كانت تجعل من هذه الشخصية اليهودية شخصية صلبة، قليلة المطاوعة، سيئة التكيف في جانبها الاجتماعي.

- التيار، أو الفئة القبالية: وهو التيار، أو المذهب الوحيد، أو العقيدة الوحيدة الأهم التي انفرزت عن اليهودية في سياق مرحلة الشتات الطويلة، وهذه الفئة تمثّل الوجه الآخر، والنقيض للتيار التلمودي، وقد برزت الظاهرة الصوفية القبالية في اليهودية بعد بدء سقوط جدران الغيتو، وكما أن الخوف من الانسلاخ الديني، الأثني الثقافي، قد ساهم في بروز التيار التلمودي، فقد ساهم أيضا بتشكيل، وبروز التيار الصوفي القبالي اليهودي، لا سيما بعد أن بدأ اليهودي يتشكك بعقيدة شعب الله المختار، بل بدأ الشك يساوره بأنه ليس سوى نمط من أنماط الدون كيشوتية، وهو الأمر الذي جعل بعض اليهود يرفضون العقلية التلمودية، ويلتجئون إلى القطب الآخر، وهو قطب الصوفية، الذي يمثل طريقة سلبية انسحابية انهزامية للتمركز حول الأنا الفردية، والجمعية التي انكفأت على ذاتها، وحاولت أن تجد حلولا خلاصية استسلامية في زمكانها.

وهذا التيار الصوفي القبالي برز، وتبلور عند الجماعات اليهودية السفاردية، وتحديدا في الأندلس في سياق العهد العربي، ولكن، وبعد أن طرد اليهود من شبه جزيرة أيبيريا من

قبل محاكم التفتيش الكاثوليكية، وانتشروا في أوربا الغربية، وفي أقاليم الإمبراطورية العثمانية والتي كانت تضم إليها بعض الأقاليم التي تتواجد فيها جماعات يهودية أشكنازية، فقد انضم بعض اليهود الأشكناز أيضا إلى هذا المذهب.

وقد كان للأزمة النفسية التي تعرض لها يهود الأندلس (المارانو) بعد أن تم طردهم من (فردوسهم المفقود) في الأندلس، وانتشارهم، بل وتشتتهم في جغرافيا جديدة، أثر كبير في تبلور وانتشار هذا المذهب، حيث تعرضت تلك الجماعات إلى تجاذبات وتنافرات فيما بينهم، وبين المجتمع الغربي المسيحي، وهو الأمر الذي أدى إلى حالة قلق، وعدم استقرار استشعرت بها الأنا اليهودية، والتي لا ينقصها المزيد من التورمات التي تأتي من عقيدة شعب الله المختار، مما اضطر بعض اليهود إلى الانكماش، أو ما يمكن تسميته بالانعزال الدفاعي، وتشكيل جماعة صوفية يهودية.

وهكذا، فبينما استطاعت الأغلبية من تلك الجماعات اليهودية (المارانو) من الاندماج في المجتمع الغربي المسيحي، لم يجد بعض اليهود القباليين سيئوا التكيف سوى الانكفاء على ذاتهم، للوصول إلى حالة من التوازن في داخل الذات اليهودية، التي كانت تواجه حينها تغيرات النهضة الأوربية، والتبدلات الفكرية التي تمخّضت عنها، أي أن القبالة هي في جانب منها حالة استرضاء ما بين الذات اليهودية المهزومة، وما بين الموضوع الأوربي المستبد، أي هي حالة تجاوزت فيه تلك الجماعة الإقرار بالهزيمة الذاتية من أجل الحفاظ على المكونات النرجسية في الذات اليهودية، كما أنها تمثل حالة هروب من الإقرار بالهزيمة الزمكانية التاريخية أيضا، مع الحفاظ على الممكن من الكرامة، فبعد أن بلغ بعض اليهود مرحلة من اليأس في أن يأتي المستقبل لهم بمسيحهم المنتظر، ويخلصهم من معاناتهم الجديدة، التي تشكل حلقة في سلسة المعاناة والاضطهادات التي تعرض لها اليهود في مرحلة الشتات، وبعد أن عانى ما عاناه اليهودي نفسيا، وجسديا من عمليات الطرد المتلاحقة، في غير مكان، وغير زمان، قرر أن يجد حلا لهذا الرفض الزمكاني، بأن يدخل في المطلق، متخليا دفعة واحدة عن كل ذكرياته للزمن الماضي التوراتي، بمعناه التاريخي، الذي عاش فيه الآباء الأوائل، وعن كل أحلامه في المستقبل التي سيوصله إليها المسيح اليهودي المنتظر بمعناه التاريخي.

وهكذا فقد حاول اليهودي القبالي من خلال طقوسه، وصلواته الصوفية فتح ممر مع المطلق، كان من شأنه أن يقوم بتفريغ الشحنات النفسية من خلال الجهاز ما قبل الشعوري، وتصريف الانفعالات النفسية، التي تغص بها مسام روحه بسبب ما يتعرض له من اضطهادات جسدية، ونفسية من قبل الأوربي، وبذلك فإن اليهودي القبالي قام بالهروب من الحضور الشامت، ومن الماضي الجافر، ومن المستقبل الذابل، بخروجه، أو هروبه، أو عروجه من الزمكان المادي التاريخي المحدود إلى الزمكان المطلق اللامتناهي باتحاده بعناصر الوجود.

وقد جعل القباليون من طقوسهم الصوفية كنيسا روحيا ليهودية الشتات، كما أنهم شكلوا (العهد الحديث) مع الرب، في الوقت، وعلى الجانب المقابل، قام اليهود التلموديون بتغييب الحضور الشامت من خلال استحضار الغياب الذي تمثله الذكريات كما يتخيلونها، أو كما أتت في التوراة (الفردوس المفقود)، والتي هي نفسها تمثل الأحلام والأمنيات اليهودية، وقد حافظ التلموديون على هويتهم الدينية اليهودية من خلال الكنيس التوراتي

التلمودي، على الرغم من شعورهم بالبون الشاسع ما بين الواقع الذي يعيشونه في شتاتهم، وما بين ذكرياتهم الدينية، وتطلعاتهم الدينية المسيحانية اليهودية الخلاصية التقليدية والتي لم تذبل على الرغم من مرور الزمان الطويل، وهذا الكنيس التلمودي الشتاتي قام بدور يماثل الدور الذي قام به كنيس عزرا في مرحلة السبي البابلي.

تُعَدّ العقيدة القبالية نمطاً خاصاً من أنماط العقيدة المسيحية الخلاصية، كما تشكل استجابة لحالة اليأس من مجيء المخلص، لا سيما بعد أن فشلت اليهودية التلمودية من استدراج المسيح التاريخي المخلص، على الرغم من كل تلك المعاناة اليهودية، ومن هذا اليأس والإحباط، ومعالجة له لجأ البعض من اليهود إلى العقيدة الصوفية هاربين من الحاضر المتحول (هنا - الآن)، إلى الغائب الثابت المطلق، جاعلين من الصوفية مسيحا من نمط خاص يقوم على إعادتهم روحيا، لا ماديا إلى الزمكان المطلق، واتحادهم مع الرب في السماء، أي أن الصوفي اليهودي قام باستبدال فردوسه المفقود الزمكاني (إرتس إسرائيل)، بفردوس يمكن الوصول إليه من خلال تقمصه أو تحوله لمسيحه الخاص، بينما يتحقق لهم الخلاص الزمكاني التاريخي.

ومن هنا يمكن لنا أن نرى في القبالة اليهودية قمة السلبية في العقيدة اليهودية، بل هي تمثل المسيح السلبي الهارب الذي قام بقيادة اليهود المشتتين من الزمكان المادي إلى الزمكان المطلق، أي أن اليهودي القبالي لم يجد سوى النكوص، أو (الانتحار)، أو التلاشي في المطلق، بعد إطباق اليأس على آفاق الجماعات اليهودية في الشتات، وتطلعاتهم المستقبلية، وهذا يعني أن اليهودية الصوفية برخاوتها، تشكل حالة تقاطبية مع اليهودية التلمودية الصلبة، والتقاطب فيما يعنيه هو وجود فكرتين أو تصورين، أو مذهبين متناقضين، داخل الذات الفردية، حيث يستطيع الفرد أن يتبنى أو يتنصّر لإحدى الفكرتين، وأن يرفض، وينبذ، بل ويشن هجوما عنيفا على الفكرة الأخرى، إلا أن هذا الإنسان التقاطبي، في حال تغيرت الظروف التي جعلته يتبنى الفكرة الأولى، فإنه ينكص على ذاته، ويتبنى الفكرة الثانية المتناقضة مع الفكرة الأول، وبذلك فهو الشخص الذي يحمل فكرتين متناقضتين في آن واحد، والقادر على كبت فكرة لمصلحة الفكرة النقيضة، بعد اختيارها بما يتلاءم والمرحلة النفسية، والفيزيولوجية، لدى الفرد.

كما تمثل الصوفية اليهودية حالة تقاطبية مع اليهودية الثورية التي عرف اليهود بها تاريخيا، لا سيما في المرحلتين اليونانية، والرومانية، أما في مرحلة الشتات فقد واجهت الجماعات اليهودية واقعا متكلسا، صدئاً، متيبسا، محنطا، لم يستطع اليهودي أمامه الإتيان بأي حراكية تاريخية ذات شأن، الأمر الذي جعل بعض اليهود يعلنون استسلامهم الشامل أمام التاريخ، ويهربون نحو المطلق الأبدي من الزمكان بكل دلالاته التاريخية، والجغرافية، والنفسية.

ومن جانب آخر يمكن أن نرى أن الصوفية القبالية اليهودية أتت استجابة أيضا لتمزق اليهودي بين شعوره بالدونية، والاحتقار الذي كان الأوربي المسيحي في عصر النهضة الأوربية يعامل بها اليهودي الذي يُعَدّ نفسه (شعب الله المختار)، والذي كان يرى أن هذا المسيحي زنديقا، ضالا، وقد حاول اليهودي الفقير، المأمور، المسلوب الإرادة، أن يتساوى مع سيده الأوربي، ومن خلال العقيدة الصوفية التي تذهب إلى أن الوجود يشكل وحدة واحدة لا فرق بين أي عنصر من عناصرها، بحيث يمكن أن

يتحول، أو يتساوى كل عنصر مع نقيضه، ويندمج معه في كتلة واحدة يستحيل الفصل بينهما، حيث تندمج، وتتساوى، وتتحول الثنائيات، وتصبح الأرض هي السماء، والأب هو الابن، والأمام هو الوراء، والمحيط هو المركز، والحاكم هو المحكوم، والأمير هو الفقير، والغريب هو القريب، والمعلوم هو المجهول، والنكرة هي المعرفة، والدال هو المدلول، والذات هي الموضوع، والصفة هي الموصوف، والغياب هو الحضور، والثابت هو المتغير، والعقل هو الجسم، والفكرة هي الموضوع، وكل هذه الظواهر المتناقضة ليست أكثر من أمواج عابرة متحولة في المحيط الأبدي الثابت، وجميعها في لحظة الحقيقة، أو لحظة الإشراق الصوفية تعود إلى جوهر واحد في وحدة الوجود، كما تمحي الهويات والانتماءات والجنسيات والعروق، بل وتحلل فيها المحارم، ويصبح كل شيء مباحاً، حيث يتعرى الجميع، ويعرون ذواتهم، وأجسادهم من الملابس المختلفة المتنوعة ويمتزجون في بنية واحدة.

ومن هنا فإن الصوفي، ومن خلال طقس جماعي، يستطيع أن يدعم أناه الفردية الهزيلة، التي تعاني من حالة من الضمور، والتشظي، وأن يعيد إليها وحدتها، ويجمع جزرها في يابسة واحدة، وجغرافية جديدة، كما أنه، ومن خلال طقسه الصوفي، يستطيع أن يضخ الروح في أناه الفردية، والجمعية، وأن يضخمها من خلال ذوبانها (أو اتحادها) في أنا جماعية كونية، وهكذا فإن اليهودي الذي لم يستطع أن يكون عضوا شرعيا في المجتمعات الأوربية، فإنه، ومن خلال مذهبه الصوفي يستطيع أن ينضوي، وأن يكون عضوا في المجتمع الكوني، وعلى ارتباط مباشر مع المقدس، بدل أن كان اليهودي ينقصه اعتراف الآخر بهويته، وشرعية وجوده في المكان والزمان الأوربيين.

والمذاهب الصوفية، على اختلافها، تنضوي على أسس واحدة تشترك فيها جميع الأديان، والمعتقدات، سماوية كانت، أم أرضية، وتوحيدية كانت، أم تفريدية، أم تعددية، ووثنية كانت، أم تجريدية، مع بعض الخلافات الشكلية السطحية التي تتأتى من تأثير التصور الديني التقليدي التي يعود إليها مريدوها، ومن تأثير المعطيات التاريخية والزمكانية، وقد برزت عدة دعوات أو تيارات أو مذاهب صوفية غنوصية، وخاصة في الآونة الأخيرة، وهي ما دعيت بالديانات الجديدة، التي لا يمكن تحديد الديانة التي بنيت عليها تلك التصورات، ومنها على سبيل المثال المذهب البهائي الذي دعى إليه الفارسي المسلم ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء (١٨١٧ - ١٨٩٢م) الذي ادّعى أنه المسيح المنتظر، ودعا إلى عودة اليهود إلى الأرض المقدسة (فلسطين)، كما دعا إلى توحيد الديانات، وحتى اللغات، كما يمكن أن نرى في الماسونية نمطا من هذه الأنماط.

وجميع هذه العقائد التصوفية الحلولية الغنوصية تذهب إلى أن الإنسان (المتحول) يستطيع أن يتحرر من عالمه المادي، وأن يتوحد مع الرب (الثابت)، من خلال عبور الإنسان في لحظة الإشراق ضمن ممرات، ومقامات، تنتهي بعروجه من الأرض نحو السماء، بواسطة اتباع الإنسان لطقوس محددة بعينها، يتجرد الإنسان عبر مراحل متعاقبة من طبيعته البشرية الغريزية، ثم من تطبعه الإنساني، وصولا إلى الصفاء والإشراق والتماهي مع إلوهيته.

كما يذهب التصور الصوفي إلى أن الإنسان هو جزء أو عنصر من عناصر الوجود، وليس له أي مميزات خاصة ترفعه عن باقي العناصر الوجودية على اختلافها،

والتي يمكن للمريد، من خلال الطقس الصوفي، أن يتخاطب معها من خلال لغة حدسية، ذهنية، ومن ثم الاتحاد بها في لحظة الإشراق، وبذلك فإن الصوفية القبالية اليهودية في هذا الجانب تحديدا قامت بإلغاء عقيدة شعب الله المختار حسب التصور التوراتي التلمودي، وتذهب القبالة اليهودية إلى أن الإنسان في الأصل ذو مصدر إلهي، ولكن وبسبب خلل كوني سقط الإنسان في عالم الوجود المدنس الشرير، والطقس الصوفي هو السبيل الذي يمكنه أن يعيد إلى الإنسان صفته النورانية من خلال اتحاده بالإله، وهذا التصور الصوفي، في اليهودية على وجه الخصوص، يبدو كما لو أنه يريد أن يقول، أو يوحي، بأن اليهود كانوا شعب الله المختار، ولكن، وبسبب أخطاء تاريخية فقد اليهودي قدسيته، وأصبح شخصا دنسا، وليس هناك سوى الطقوس الصوفية القبالية التي يمكن لها أن تعيد له صفة القداسة من خلال اتحاده بالرب.

كما تذهب التصورات الصوفية القبالية إلى أن الإنسان عبارة عن حالة سلبية، وليس له أي فعالية أو تأثير في مجريات الأحداث التي تم وضع سيناريوهاتها من قبل المطلق، ومنذ الأزل، ولذا على الإنسان الخضوع التام للمشيئة الإلهية لأنه لا يستطيع أن يغيّر قيد أنملة فيها، وهذه النقطة تعبّر عن حالة الإحباط والشلل، والسلبية التي وصل إليها اليهود في مرحلة الشتات.

وتعتمد القبالة الصوفية على مجموعة من الطقوس، والسلوكيات التي يقوم بها المريدون، وبشكل جماعي، حيث يقوم المريد في البداية، ومن خلال حركات معينة ذات دلالات خاصة، بتوحيد ذاته بعد أن يقوم بإفراغ ما فيها من عناصر دنسة، ومشاعر متنوعة، وتشوش، وقلق، وحب، وكره، وتذمر وكل ما يتعلق ببنية الإنسان الجسدية المادية، كما يقوم بتفريغ الذهن من المؤثرات العاطفية للذكريات بما فيها من أفراح، وأتراح، كما أنه، ومن خلال حركات متكررة، يهدهد لمخاوفه، ومسببات قلقه من المستقبل الضبابي الغامض، كما أنه يقوم بتفريغ أحلامه، وأمانيه، وطموحاته، ثم يقوم بتعميد أو تطهير الروح، أو النفس مما علق بها من آثام، وبذلك يقوم، بغسل، وفتح مسامات كيانه، ويخلصها من السموم من خلال التعرق الذي ينتج عن النشاط الفيزيائي، والروحي الذي يقوم به المريد أثناء تأديته للطقس الصوفي، الأمر الذي يساهم بفك الحصار الذهني الذي يقوم على خنق أفكاره، للوصول إلى درجة ما من الصفاء الروحي، كما يساهم في صيانة، وإعادة تشكيل الأنا بعناصر أكثر وضوحا، وجلاء، ومن ثم، ومع مزيد من الحركات الفيزيائية، والتركيز الذهني تتصاعد الحالة الصوفية، ويبدأ المريد يشعر بتوحده مع باقي المريدين، ومن ثم التوحد تدريجيا مع باقي العناصر الكونية، ومن ثم، وبمزيد من إحماء الطقس الصوفي، تنفتح الممرات الذهنية، ويتحول فيها المريد إلى إنسان ذهاني، هذياني، أو يبدو كما لو أنه يخضع إلى تأثير مارجواني، يكتسب خلاله الجسد نشاطا خاصا، ومميزا، وتتجدد الرؤية، ومن ثم تنفتح الأنوات على بعضها أيضا، ويتحول جسد المريد في لحظة الإشراق إلى براق يطير بواسطته من الأرض نحو السماء، وصولا إلى التوحد مع الرب الذي يمنح المريدين عفوا شاملا خاصا، دون أن يقوم بفتح، ونشر صفحات المريدين السابقة، حيث يقوم المقدس المطلق بإتلاف ملفاتهم، وهي مغلقة، ودون أي تحقيق، أو محاكمة، للشخصية السابقة، وبمعنى ما فإن الطقس الصوفي يحقق للإنسان رغبته الدفينة في العودة إلى الحالة الجنينية،

ورفض حالة النضج والتمايز، أي رفض لحالة المعرفة (الأوديبية)، وبالتالي العودة إلى الفردوس المفقود الأول.

وإذا كانت اليهودية التوراتية عبارة عن عقيدة تفريدية، فإن القبالة في جوهرها هي عقيدة حلولية تعددية، بل يمكن أن ننظر إليها على أنها وثنية شمولية، فبينما يشكّل التصنيم في العقائد الوثنية حالة حلولية جزئية منقطعة، فإن القبالة حالة شديدة الخصوصية من التصنيم، حيث في الحلولية القبالية يتواجد الجزء في الكل، كما يتواجد الكل في الجزء، وهذا يعني أن العناصر الكونية تمثل أصناما للإله، وقد عبّر القباليون عن عقيدتهم التعددية، من خلال ذهابهم إلى أن الكون يحكمه مجموعة كبيرة من القوى الإلهية التي انبثقت من مصدر واحد مبهم، كما يمكن النظر إلى القبالة اليهودية على أنها محاولة لإخفاء إلحاد متخف في نقيضه، حاول اليهودي الهروب من الاعتراف به، وما دخول اليهودي في الطقوس التصوفية، التي تمثل حالة من الورع الديني سوى إضفاء المزيد من المتاريس أمام الوعي في الطريق الذي قد يصل به في لحظات مكاشفة استثنائية، إلى اكتشاف تلك الحقيقة.

ومن جانب آخر، وبينما يبرز الجانب الشيطاني للرب يهوه في التلمود، فإن القبالة اليهودية تقوم على تمثل عبادة الشيطان بطريقة متوارية على اعتباره يمثل الوجه الآخر للرحمن، وهو جزء لا يقل أهمية من أهمية الله، في وحدة الوجود.

كما أن القبالة اليهودية أعادت الزخم، إلى التصور الذي جاء به أنبياء اليهود، والذي يذهب إلى أن الرب يهوه كان قد طلّق زوجته إسرائيل، والتي هي عبارة عن تهويد لعقيدة الخصب الكنعانية، (بعل، وعشتار)، وكما كانت قد بينت الأبحاث الأركيولوجية من أن مملكة يهوذا كانت تتعبد للرب يهوه، إلى جانب تعبدهم إلى الربة عشتار أيضا، وهذه الحقيقة قام محررو التوراة بإخفائها، وجعلوا، أو استبدلوا عشتار بالشعب الإسرائيلي، ولكن القباليين عادوا إلى عباد الإلهة الأنثى ثانية، فقد جاء في ترنيمة قبالية وضعها إسحق لوريا (١٥٣٤ - ١٥٧٢م):

يرتل اليهود ممجدين الملكة العروس المتوجة بتيجانها السبعين
تاجا فوق تاج في قدس الأقداس
السيدة التي منها كل العالمين

ويذهب كتاب الزهار القبالي، إلى أن الصلوات القبالية تمكّن يهوه من اتحاده جنسيا مع الإلهة الأنثى التي تدعى الشكينة، أو الشخينة، على الرغم من أنف الشيطان الذي يحاول أن يمنع هذا الاتحاد، وهو أمر طريف إذ إن الشيطان عُرف عنه أنه هو الذي يوسوس للذكر والأنثى ليتحدا مقترفين الخطيئة، كما أن أتباع المذهب القبالي يعتقدون أن الهيكل الأول والثاني تم بناؤهما بعد أن تم اتحاد الرب الذكر يهوه، مع الربة الأنثى (الشخينة)، وبذلك فحتى يتم بناؤهما الهيكل الثالث، على يد المسيح اليهودي المنتظر، لا بد من اتحاد الرب يهوه مع الربة الأنثى، وهم من أجل ذلك، ومن خلال طقوس جنسية جماعية خاصة يحللون ويغشون فيها المحارم كي يساعدوا، أو يشجعوا على اتحاد الرب، مع الربة الأنثى، وهكذا فإن الطقس الصوفي في هذا السياق يقوم بتفريغ الشحنات الجنسية الفرويدية.

وأخيرا، فإن المذهب القبالي اليهودي الذي كان أهم عقيدة أفرزتها اليهودية فيما بعد الميلاد، أخذ بالشحوب في العصور الحديثة، ولم يبق منه سوى حركة غوش أمونيم، إلا أنه

كان قد أدخل تصوراته الدينية في (العقيدة الصهيونية اليهودية)، التي قامت بعلمنة تلك التصورات القبالية، وجعلت من نظريتها المسيح اليهودي المنتظر الذي أعاد الجماعات اليهودية إلى فلسطين.

تواريخ المرحلة اليونانية حسب دائرة المعارف الكتابية:

٤٢٤ ق.م	موت ارتحشستا الأول وارتقاء داريوس الثاني
٣٣٦ ق.م	ارتقاء داريوس الثالث العرش، وهو آخر ملوك
٣٣٦ ق.م	الإسكندر الأكبر يخلف أباه فيليب المقدوني في حكم مقدونية
٣٣٢ ق.م	زيارة الإسكندر الأكبر لأورشليم
٣٣١ ق.م	معركة أربلا والإطاحة بالإمبراطورية
٣٢٣ ق.م	موت الاسكندر الأكبر وانقسام إمبراطوريته
٣٢٠ ق.م	بطليموس سوتير يضم اليهودية إلى
٣١٢ ق.م	ارتقاء سلوقس الأول عرش سورية، وبداية عصر السلوقيين.
٢٨٣ ق.م	بطليموس فيلادلفيوس يحكم مصر.
نحو٢٥٠ق.م	التاريخ التقليدي لبداية العمل في الترجمة السبعينية.
٢٢٣ ق.م	أنطيوكس الكبير يملك على سورية
١٩٨ ق.م	أنطيوكس الكبير يضم اليهودية إلى سورية
١٧٥ ق.م	أنطيوكس إبيفانس يرتقي العرش
١٦٨ ق.م	تدنيس أنطيوكس إبيفانس للهيكل
١٦٨ ق.م	مقاومة متتياس وثورة المكابيين
١٦٦ ق.م	انتصار يهوذا المكابي
١٦٠ ق.م	موت يهوذا وتولي يوناثان القيادة
١٤٣ ق.م	مقتل يوناثان وتولي سمعان القيادة
١٤٢ ق.م	سمعان يصبح رئيس الكهنة
١٣٥ ق.م	يوحنا هيركانس يخلف سمعان.
١٠٦ ق.م	أرستوبولس يصبح رئيس الكهنة
١٠٥ ق.م	ألكسندر يانيوس
٦٣ ق.م	بومبي الروماني يستولي على أورشليم.
٤٧ ق.م	أنتيباير يُعين والياً علي اليهودية.
٤٣ ق.م	مقتل أنتيباتر.
٤٠ ق.م	أنتيجونوس آخر ملوك المكابيين يرتقي العرش.

٣٧ ق.م	هيـرودس يقتـل أنتيجونـوس ويصـبح ملكـاً علـى
٣١ ق.م	أوغسطس يصبح إمبراطورا على روما.
١٩ ق.م	بدايـــــة بنــــاء الهيكــــل.
نحو ٥ ق.م	ولادة يســوع المســيح فــي بيــت لحــم.
٤ ق.م	مـــوت هيــــرودس الكبيــــر.